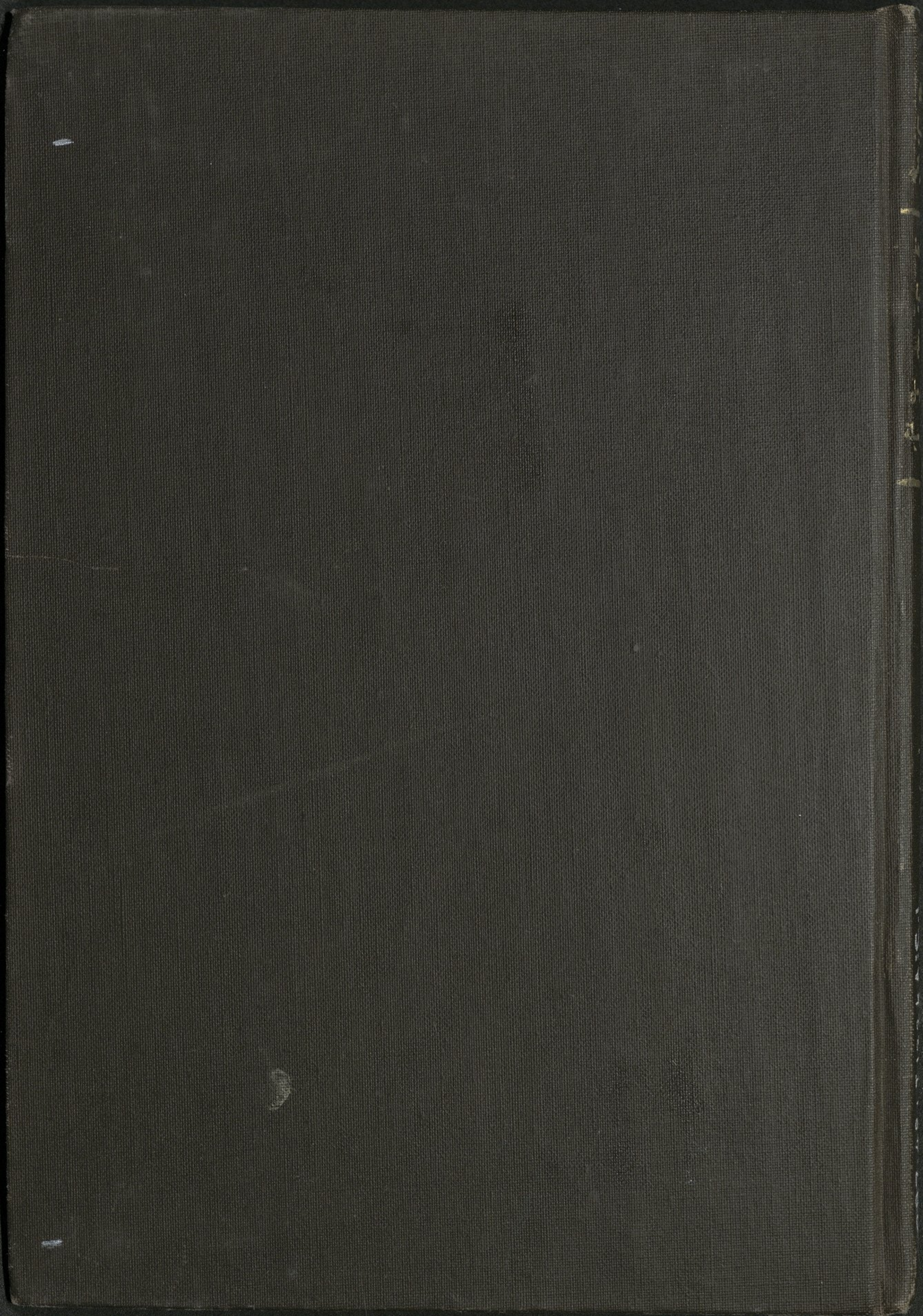
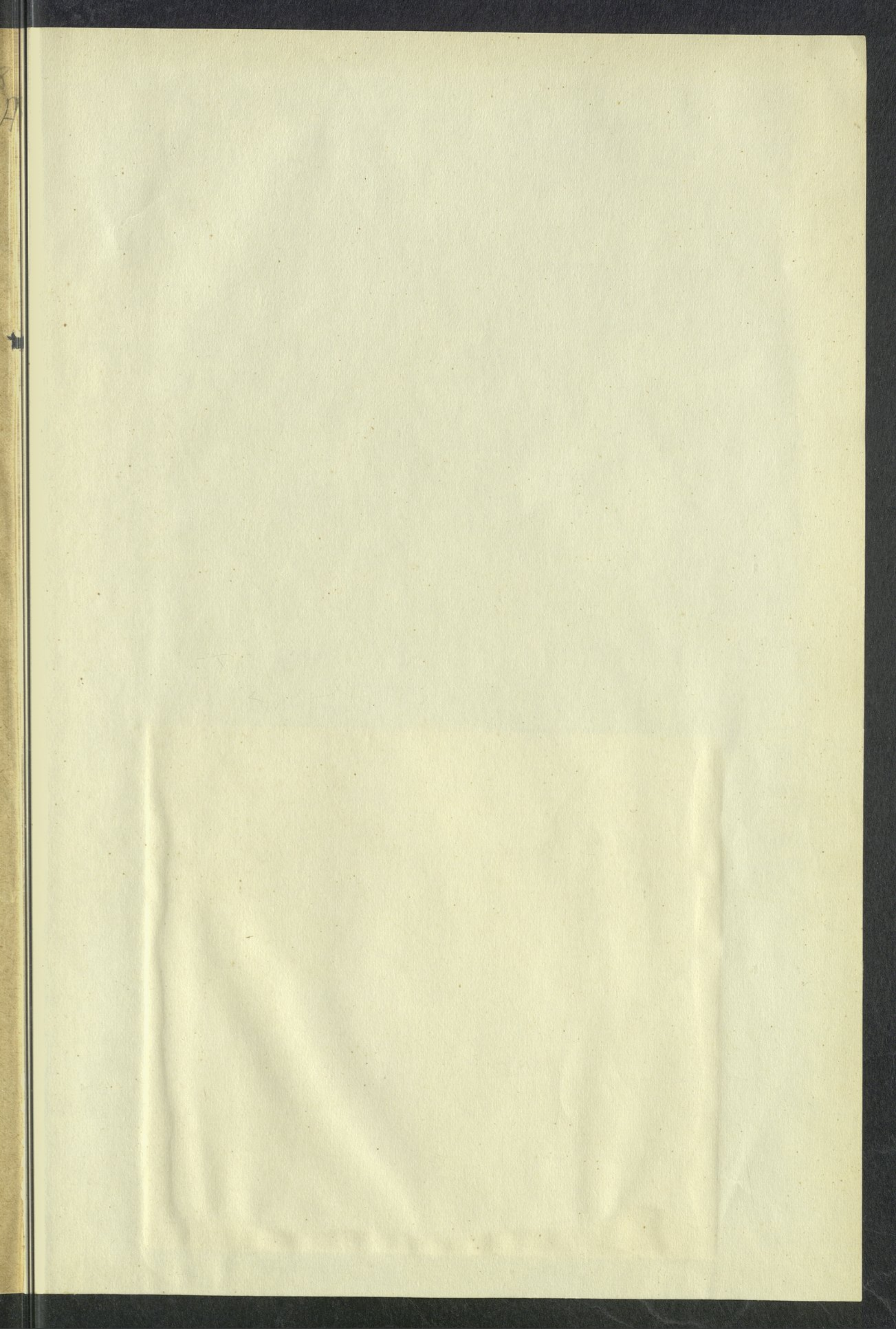




قاعدة جليلة

في

التوسل والوسيلة

للامام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

رحمه الله تعالى

علق عليه وصحح أصوله الأستاذ

طه محمد الزيني

من علماء الأزهر

الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣ هـ

ملتزم الطبع والنشر

محي الدين محمد شاهين

المطبعة المنيرية بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فهذه الرسالة « قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة » للامام أحمد بن تيمية من أنفس الرسائل وأقيمها ، وأنفعها للمسلمين دينا ودنيا لأنها تصحح لهم ناحية هامه من نواحى دينهم ، هى ناحية التوسل التى اضطرب فيها الناس ، وذهبوا فى جوازها وعدمه مذاهب شتى ، بعضهم يحلل وبعضهم يحرم ، ومن المحللين قوم غلوا فى التوسل حتى توسلوا ببعض المخلوقات التى لم تبلغ من المكانة ما يؤهلها لرفعة الشأن ، بل توسلوا بالقبور والأحجار نفسها ظنا منهم أن ما جاور العظيم فهو عظيم ، وأن إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه حتى يصح أن يكون وسيلة لله ، ومن المحرمين قوم جهلوا معنى الوسيلة فحرموا أن يطلب المسلم من أخيه الدعاء له ، ظناً منهم أن دعوة المؤمن لأخيه من التوسل المحرم ، وهؤلاء وأولئك ليسوا على الحق وإنما الحق وسط بين غلو المحرمين والمحللين ، وقد بينه العلامة ابن تيمية أوفى بيان ، وأوضحه أيما إيضاح ، فحشد جميع الآيات التى وردت فى الوسيلة فى القرآن الكريم ، وجميع الأحاديث التى وردت فيها أيضا صحيحها وضعيفها حتى ما كان منها موضوعا ، وبين سبب الضعف وأقام الدليل على الوضع ، حتى جعل قارئه يعجب لهذه القدرة الفائقة على استيعاب آيات القرآن على اختلاف سورها ، وتشتت مواضعها ، وحفظ الأحاديث الواردة فى هذا الشأن جميعها ومعرفة درجتها من الصحة والحسن والوضع وغير ذلك ، ولا غرابة فالإمام أحمد بن تيمية كان نادرة زمانه ذكاءً وألمعية وحسن استنباط للأحكام من الكتاب والسنة ، وقوة حجة فى الاستدلال لما يرى أنه الحق وأشهد لقد أجهدنى بحثا عن مواضع الآيات والأحاديث وشرح غريبها ، مما جعلنى أحله من نفسى المنزلة التى لا يسمو إليها غيره من علماء عصره ، وقد استطرد أثناء

ذلك إلى موضوعات إسلامية مهمة وفّاها حقها من البحث ، وأزال شكوك الناس فيها ، وحيرتهم بين آراء العلماء المختلفة ، فتعرض لطرف من أفعال الجن وتشكلهم واختلاطهم بالناس يغوونهم أو يكلمونهم بلسان الأموات ، أو الأحياء ، ويضرون أعداء من يصادقونه من الإنس ويسرقون له الأموال إلى غير ذلك من أعمال الاستمتاع التى ذكرها الله تعالى بقوله (وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) وبين حكم إهداء ثواب الأعمال إلى الرسول ﷺ وإلى الأموات ، ولا سيما الوالدين ، وتعرض لحكم القسم الصحيح وغيره ، وحكم قسم الله بالمخلوقات وقسم الناس بها ، وبين الفرق بين سؤال الله والإقسام عليه ، وسؤال الخلق والإقسام عليهم ، وأول الشرك وأنواعه وبين اجتهاد الصحابة وما كان منه مخالفا للسنة أو موافقا لها ، وتكلم عن الأحاديث الصحيحة والموضوعة فى مسند أحمد والحاكم وغيرهما ، وبين أن الولاية إنما تكون للمتقين الصالحين لا للعاصين الضالين إلى غير ذلك من الموضوعات الشيقة التى يتفتح لها الذهن ، ويأنس بها طالب الحق ، غير أن فى الرسالة كثيرا من التصحيف والتحريف ، لعله نشأ من الكاتب الذى نقلها من الكواكب الدرارى ، وكان العلامة السيد رشيد رضا قد علق على هذه الرسالة فى طبعتها الثانية تعليقات مختصرة وبين بعض التصحيف والنقص فى بعض المواضع ولكنه ترك كثيرا منها لم يتعرض له ، فصححته وشرحت كثيرا من الكلمات اللغوية الغريبة التى وردت فى كلام المؤلف ، وأشرت إلى تعليقات السيد رشيد رضا فى مواضعها وما كان منها ناقصا أكملته ، وضبطت الكلمات التى تحتاج إلى ضبط . حتى أصبحت الرسالة قريبة إلى الأذهان ، يستفيد منها الخاص والعام ، ولم أترك من الكلمات إلا ما لم أجده فى كتب اللغة مع التنبيه إلى ذلك ، ولا أستطيع جحد فضل السيد رشيد رضا فهو فى ذلك الإمام وأنا المأموم ، سارفقفيت على آثاره فهو السابق إلى الفضل الجدير بالشكر ، وقد رمزت لتعليقه الخاص بحرف (ر) ولتعليقه الذى زدت عليه بالحرف (اهـ ر) ، وإنى أسأل الله تعالى أن ينفع بها الإسلام والمسلمين وأن يجزينى بجهدى فيها ، وأن يجعلنى وقارئها من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يجزى مؤلفها خير الجزاء بما أظهر للناس من علم ، وبما دلهم عليه من خير إنه سميع الدعاء ؟

طه الزينى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعيناً عميا ، وآذاناً صما وقلوباً غلفا . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما . ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه ، فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله . وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه فى باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التى أمر الله بها عباده فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ[1]) فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما تكون لمن توسل الى الله بالإيمان بمحمد واتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد فى كل حال باطناً وظاهراً فى حياة رسول الله ﷺ وبعد موته فى مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالايمان

---

(١) الآية من سورة المائدة والوسيلة هى ما يقرب إلى الله ويوصل العبد إلى رضاه وقد بين الإمام ابن تيمية أن الوسيلة إلى الله إنما تكون بالإيمان بالنبى ﷺ واتباعه وأن الوسيلة بهذا المعنى فرض على كل مسلم فى كل حال فى حياة الرسول وبعد موته ولا تسقط عن أحد من الناس فى أية حال ولا عذر فى تركها بعد قيام الحجة عليها .

به وبطاعته عن أحد من الخلق فى حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالايمان به وبطاعته . وهو ﷺ شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاها عند الله . وقد قال تعالى عن موسى (وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً[1]) وقال عن المسيح (وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ[2]) ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل الى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون الى الله بدعائه وشفاعته ، وكما يتوسل الناس يوم القيامة الى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ولفظ التوسل فى عرف الصحابة كانوا يستعملونه فى هذا المعنى[3] . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الايمان به . وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغنى عنهم شفاعة الشافعين فى الآخرة ، ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهى عن الاستغفار للمنافقين وقيل له (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ[4]) ولكن الكفار يتفاضلون فى الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان فى الإيمان قال تعالى (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ[5]) ، فإذا

---

(١) الآية من سورة الأحزاب وتمامها (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) وإيذاء قوم موسى له أنهم قالوا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر أى كبير الخصية ، فذهب مرة ليغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فسار موسى حتى أخذ ثوبه وبنو إسرائيل ينظرون إليه فلم يجدوا به بأسا فكانت تلك براءة الله له والوجيه ذو الجاه والمكانة العظيمة عند الله (٢) الآية من سورة آل عمران وتمامها (يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) أى ذو مكانة عند الله فى الدنيا والآخرة (٣) أى يتوسلون إلى الله بدعاء الرسول ﷺ لهم فى الدنيا وبرجاء شفاعته فى الآخرة (٤) الآية من سورة المنافقون وقد بين الله تعالى أن استغفار الرسول ﷺ المنافقين لا ينفعهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتبعوه .

(٥) الآية من سورة « براءة » والنسىء تأخير حرمة القتال فى الأشهر الحرم إلى أشهر



كان فى الكفار من خف، كفره بسبب نصرته ومعونته فإنه تنفعه شفاعته فى تخفيف العذاب عنه لا فى إسقاط العذاب بالكلية ، كما فى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت يارسول الله فهل نفعت أباطالب بشىء فانه كان يحوطك ويغضب لك قال « نعم هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار[١] » وفى لفظ ان أباطالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك ؟ قال « نعم وجدته فى غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح » وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منهما دماغه » وقال « ان أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه » وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لايعجل عليهم العذاب فى الدنيا كما كان ﷺ يحكى (أن) نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول « اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون[٢] » وروى أنه دعا بذلك أن[٣] اغفر لهم

غيرها ، وكان الكفار يفعلون ذلك حسب أهوائهم فتارة يحلون القتال فى الأشهر الحرم وتارة يحرمونه إذا رأوا فى ذلك مصلحة لهم وقد بين الله تعالى أن عملهم هذا زيادة فى الكفر قال تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لايهدى القوم الفاسقين)

(١) الضحضاح الماء القليل العمق . يريد الرسول ﷺ أن أباطالب فى عذاب قليل كمن يوجد فى ماء قليل كما سيأتى بعد ذلك أن النار تغمر رجليه فقط إلى الكعبين والدرك الأسفل قعر جهنم ويكون العذاب فيها عاما شاملا تغمر النار الكافر وتحوطه من جميع جهاته كما قال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون)

(٢) دعا النبى ﷺ بهذا الدعاء يوم « أحد » لما شج المشركون وجهه وكسروا رباعيته وهى إحدى أسنانه الأمامية ودخلت إحدى حلقات المغفر فى وجنته والمغفر هو الترس التى يدافع بها عن نفسه فى الحرب . ومعنى طلب الرسول ﷺ المغفرة لقومه بعد مافعلوا به أن يهديهم الله إلى الإيمان وقد آمن أكثرهم بعد ذلك . ولما ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإيمان فأغلظوا له القول وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة حتى دميت قدماه . أنزل الله عليه جبريل فقال له لو شئت أطبقت عليهم الأخشبين أى الجبلين فقال مامعناه (أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئا) (٣) لعلها « أى » التفسيرية ولعل فى هذا السياق تحريفا من

فلا تعجل عليهم العذاب فى الدنيا . قال تعالى (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَـكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى[1]) وأيضا فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه كما دعا لأم أبى هريرة حتى هداها الله ، وكما دعا لدوس فقال « اللهم اهد دوسا[2] وائت بهم » فهداهم الله ، وكما روى أبو داود انه استسقى[3] لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم فاستسقى لهم ، وكان ذلك إحساناً منه اليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك .

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه ولا شفاعة أعظم من شفاعته ، لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم ، فان الإيمان بهم وطاعتهم توجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقا[4] وعاما ، فكل من مات مؤمنا بالله ورسوله مطيعا لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعا ، ومن مات كافرا بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً .

وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاها ، فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل ابراهيم وقد دعا الخليل ابراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

النساخ وفى البخارى وغيره أن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء يوم أحد وقد شجه المشركون وكسروا رباعيته . وفسر العلماء دعاءه بالمغفرة لهم بنحو من هذه العبارة قالوا لأنه لو أراد بالمغفرة مايتعلق بالآخرة لآمنوا . وقد يقال أن الدعاء استجيب فى المجموع (ر) .

(١) الآية آخر سورة « فاطر » وتمامها (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) .

(٢) اسم قبيلة من قبائل العرب ومعنى ائت بهم أحضرهم إلى ليؤمنوا ويهتدوا .

(٣) أى طلب السقيا وهى نزول المطر من السماء عند القحط وعدم الماء .

(٤) أى النجاة من جميع العذاب لا من بعضه كما ينجو بعض المشركين من بعضه فقط .

يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ (١)) وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبى طالب اقتداء بابراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه (٢) فأنزل الله تعالى (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ (٣)) ثم ذكر الله عذر ابراهيم فقال (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ اِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ اِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ (٤)) وثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة (٥) وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لاتعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول ابراهيم : يارب أنت وعدتنى أن لاتخزينى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد (٦) فيقول الله عزوجل : انى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ (٧) متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار ابراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقدقال تعالى للمؤمنين (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى اِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ . كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ اِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ

---

(١) الآية من سورة « إبراهيم » (٢) أى أراد بعض المسلمين أن يستغفروا لبعض أقاربهم حيث أراد بعضهم الاستغفار لأبويه الذين ماتا مشركين (٣) الآية من سورة « براءة » (٤) الآية أيضا من سورة « براءة » والموعدة التى وعدها إبراهيم أباه هى أن يستغفر له رجاء أن يؤمن وقد ذكر الله تعالى ذلك فى سورة مريم بقوله (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) (٥) أى عبوس وتجهم (٦) أى الذى هو أبعد من رحمتك . (٧) الذيخ ذكر الضباع ـ تشبيه لحال أبى إبراهيم فى قذارتها ومهانتها بذكر الضباع المتلطخ والضبع حيوان قذر بطبعه فما بالك به إذا تلطخ . وفى القاموس الذيخ بكسر الذال ذكر الضباع الكثير الشعر .

الْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[١])
فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بابراهيم ومن اتبعه إلا فى قول إبراهيم لأبيه
لأستغفرن لك ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال
« استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى » وفى
رواية أن النبى ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربى أن
أستغفر لأمى فلم يأذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها
تذكر الموت » وثبت عن أنس فى الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله : أين أبى ؟
قال (فى النار) فلما قفا دعاه فقال (ان أبى وأباك فى النار) وثبت أيضا فى الصحيح
عن أبى هريرة لما أنزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[٢]) دعا رسول الله
ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص[٣] فقال (يابنى كعب بن لؤى ! أنقذوا أنفسكم
من النار ، يابنى مرة ابن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس ! أنقذوا
أنفسكم من النار ، يا بنى عبد مناف ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب !
أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ! أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله
شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها[٤]) وفى رواية عنه (يا معشر قريش اشتروا
أنفسكم من الله فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله
شيئا ، ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية - عمة رسول الله -
لا أغنى عنك من الله شيئا ، يافاطمة بنت رسول الله - سلينى من مالى ما شئت لا أغنى
عنك من الله شيئا) وعن عائشة لما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال (يافاطمة بنت محمد ! ياصفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم
من الله شيئا ، سلونى من مالى ما شئتم) وعن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) الآيه من سورة « الممتحنه » والأسوة القدوة والاتباع .

(٢) الآية من سورة « الشعراء » (٣) أى أنذرهم جميعا ثم خص البطون والأفراد
فالعموم فى قوله يامعشر قريش والخصوص فى قوله يا بنى عبد مناف ياعباس ، ياصفية الخ .

(٤) الرحم معناها صلة القرابة بسبب النسب والمصاهرة ومعنى أنه ﷺ سيبلها ببلالها

خطيبا ذات يوم فذكر الغلول[١] فعظمه وعظم أمره ثم قال (لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء[٢] يقول : يارسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء[٣] فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقاع[٤] تخفق فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[٥] فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، أخرجاه فى الصحيحين وزاد مسلم ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يارسول أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، وفى البخارى عنه أن النبى ﷺ قال ، ولا يأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها ثغاء فيقول يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولا يأتى أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول يا محمد ، فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، وقوله هنا ﷺ لا أملك لك من الله شيئا كقول ابراهيم لأبيه (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) .

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة فى الدنيا[٦] والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة فى زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين ، وقد قيل ان بعض أهل البدعة ينكرها . وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة[٧]

انه سيصل رحمه بالنصيحة لذوى قرباه ، ويقال لمن وصل رحمه « بَلها » .

(١) الغلول هنا الخيانة بإخفاء حق الفقراء من الزكاة ، وبعض الأحاديث يستدل منها على أن المراد بالغلول مطلق الخيانة بالسرقة وإخفاء حق الفقراء وقتل النفس وغير ذلك .

(٢) هو صوت الابل (٣) هو صوت الشاه (٤) أى أثواب تضطرب فى الهواء يحملها لأنه لم يؤد زكاتها (٥) الصامت الذهب والفضة (٦) ثبت نفع دعائه فى الدنيا بما وهب الله أنس بن مالك رضى الله عنه من المال الوفير والولد الكثير وطول العمر بعد دعائه ﷺ له وبرد بصر الأعمى عليه بعد دعائه له ﷺ كما سيأتى ، وفى الدين بهداية بعض القبائل والافراد كعمر بن الخطاب وقد طلب الرسول ﷺ أن يعز الإسلام به أو بأبى جهل فأجاب الله دعاءه فى عمر بن الخطاب (٧) هم أئمة المذاهب الأربعة الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد

وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء : من يدخل النار لايخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها ، وعند هؤلاء ما ثم[١] إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة . ولا يجتمع عندهم فى الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ان الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ويخرج آخرين بشفاعة غيره ويخرج قوما بلا شفاعة .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ[٢]) وبقوله (وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) وبقوله (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِى يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ) وبقوله (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ[٣]) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ[٤])

وجواب أهل السنة ان هذا لعله يراد به شيئان : أحدهما انها لا تنفع المشركين كما قال تعالى فى نعتهم (مَا سَلَكَكُمْ[٥] فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ

---

(١) أى ما هناك يعنى فى الآخرة إلا صنفان أهل الجنة فقط وأهل النار فقط

(٢) الآية من سورة « البقرة » ربع (أتأمرون النـاس بالبر) والآيتان الثانية والثالثة من سورة « البقرة » أيضا أولاهما ربع (ما ننسخ) وتمامها (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون) وثانيتهما ربع « تلك الرسل » وتمامها (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) والعدل الفداء والخلة الصداقة أى لا تنفع فيه الصداقة بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته التى تغنيه ومن فى الأرض جميعا ، ولا ينفع فيه الفداء فلو أن للذين كفروا مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به ما تقبل منهم .

(٣) الآية من سورة « المؤمن » والحميم الصديق (٤) الاية من سورة المدثر .

(٥) هذه الآيات هى السابقة على قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) والمراد بالشافعين

نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفاراً . والثانى انه يراد بذلك نفى الشفاعة التى أثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون ان للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير اذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة كما يعامل المخلوق بالمعاوضة . فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير اذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج الى اجابة شفاعته رغبة ورهبة . فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى (مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ[١]) وقال (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى[٢]) وقال عن الملائكة (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[٣]) وقال (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ[٤]) وقال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ

هم الذين يعتقد الناس أنهم يشفعون عند الله بغير إذنه أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما يشفع باذن ربه إذ يقول له اشفع تشفع وسل تعط ، وأخبر الرسول ﷺ عن نفسه أنه أعطى الشفاعة يوم القيامة وأنها من خصائصه فقال وأعطيت الشفاعه . (١) الآية من سورة « البقرة » وهى جزء من آية الكرسى . (٢) الآية من سورة « النجم » وكانت فى الطبعة الثانية مزيدا فيها كلمة والأرض بعد « فى السموات » ولكن صحة الآية كما هنا

(٣) الآيات من سورة « الأنبياء » ومعنى مشفقون خائفون (٤) الآيات من سورة « سبأ »

دُون الله مَا لاَ يَنفعهم ولاَ يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله ، قل أتنبئون الله بمَا لاَ يَعلَم فى السموات ولاَ فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عمّا يشركون) وقال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون (١)) وقال تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون (٢)) وقال تعالى (ولاَ يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون (٣)) وقال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (٤)) وقال تعالى (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون * وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٥)) وقال تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضى له قولاً (٦)) وقال صاحب يس (٧) (وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ * إنى إذاً لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون (٨))

---

(١) الآية من سورة «الأنعام» (٢) الآية من سورة «السجدة» (٣) الآية من سورة «الزخرف» (٤) الآية من سورة الأنعام . وكانت كلمة «كنتم» ساقطة فى الأصل الثانى فزدناها لتصح الآية (٥) الآيات من سورة «الزمر» (٦) الآيات من سورة طه .

(٧) صاحب ياسين هو الرسول ﷺ وانما سمى صاحب ياسين لأنها اشتملت على فضائله وتكريم الله له ، والمراد ـ قال الرسول هذه الآيات بإيحاء الله تعالى له فهى من كلام الله إيحاء ولكنها مروية على لسان رسولنا ﷺ (٨) الآيات من سورة «يس» كما يفهم مما سبق

فهذه الشفاعة التى أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ه وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا[١]) قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخارى وغيره ، وهذه أبطلها النبى ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه [٢] ولا تمثالا[٣] إلا طمسه ومحاه ، ولعن المصورين[٤]. وعن أبى الهياج الأسدى قال لى على بن أبى

---

(١) الآية من سورة نوح (٢) المشرف المرتفع كالقبور التى عليها القباب والأضرحة وغيرها من كل قبر ارتفع عن الأرض ، وتسويتها هدمها وجعلها لاصقة بالأرض ، والسنة أن القبر لا يعلو عن الأرض بالبناء بل يكون لحدا أو شقا الا لعذر كان تكون الأرض تقذف بالماء من داخلها فيبنى فوقها لأجل الضرورة احتراما للميت ، أما تشييد القبور وتجصيصها ووضع العلامات والرايات على أعاليها وايقاد الشموع والكهرباء وغيرها داخلها ووضع المناديل ونحوها على قبور الصالحين فهذه من البدع المخالفة لسنة سيد المرسلين وقد نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فى المساجد التى فيها قبور وعن وضع السرج عليها أو فى داخلها ولم تكن المناديل والرايات موجودة فى زمانه فما بالك بهذه الزخارف والزينات التى توضع على القبور ثم تتخذ بعد ذلك مساجد إن هذا لجهل جاهل (٣) المراد بالتمثال الصنم .

(٤) المراد بالمصورين الملعونين الذين يصورون ما يكون أساسا للشرك من صور الناس والحيوانات التى على الهيئة التى تميش بها وتدخل منها إلى نفوس الناس أساليب التعظيم والتبجيل حتى يأتى عليهم زمن يعبدونها أما صور البحار والأنهار والأشجار وغير ذلك إذا قصد بها إظهار عظمة الله وإبداعه فى الكون فلهذه الصور ثواب عظيم ولا حرج فى تصويرها وقد بينت ذلك فى تعليق على كتاب تجريد التوحيد المفيد للمقريزى .

طالب : إنى لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولاقبرا مشرفاً إلا سوّيته ، وفى لفظ : ولا صورة إلا طمستها . أخرجه مسلم .

﴿ فصل ﴾

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور ـ يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين : أحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته [١] والثانى دعاؤه وشفاعته وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعاله وشفع فيه باتفاق المسلمين ، ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فان تاب والا قتل مرتدا ، ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة . وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر ، لكن هذا أخفى من الأول فمن أنكره عن جهل عرّف [٢] ذلك فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته فى الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة [٣] ، واما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة ـ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعه وغيرهم ـ ان له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وانه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر . ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك ولو كان المشرك محبا له معظما له لم تنقذه شفاعته من النار وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به . ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقروا بالتوحيد الذى جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها ، وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه » وعنه فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة يوم القيامة فهى نائلة [٤] ان شاء الله تعالى من مات من أمتى لايشرك بالله شيئا » ، وفى السنن عن عوف

---

(١) بالإيمان بالرسول ﷺ وبطاعته (٢) أى نبه إلى أنه ينكر شيئا معلومامن الدين بالضرورة (٣) أى من المسلمين (٤) معنى نائلة أى نافعة وواصله إلى من مات ـ الحديث

ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى آت من عند ربى فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهى لمن مات لايشرك بالله شيئا » وفى لفظ قال « ومن لقى الله لا يشرك به شيئا فهو فى شفاعتى » .

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذى لايقبل الله من الأولين والآخرين دينا غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ (١)) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل انه افتتح دعوته بأن قال لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ(٢)) وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال « بعثت بالسيف بين يدى(٣) الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل(٤) رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبى ﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار — كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، قُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) وقال (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟) وقال

---

(١) الآية من سورة الزخرف (٢) ورد هذا فى سورة هود وفى سورة الأعراف ومن ذلك قوله تعالى فى سورة هود « وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) .

(٣) أى قبل وقوع الساعة بمدة قليلة لأن بين يدى الشىء معناه أمامه قريب منه .

(٤) أى وأحل له الجهاد وأخذ الغنيمة ولم تحل للأنبياء قبلى .

(قل : لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ ٭ سيقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ ٭ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ ٭ سيقولون : لله ، قل : أفلا تتقون ؟ ٭ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ ٭ سيقولون : لله ، قل فأنى تسحرون ؟ ٭ بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ٭ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون)

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل . أتنبئون الله بما لايعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٭ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك[1] . وقال تعالى (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ٭ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ؟ ٭ فأقم وجهك للدين حنيفاً

(١) يريدون بذلك الأصنام التي يتقربون بها الى الله .

فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون[١]) بين سبحانه بالمثل الذى ضربه لهم أنه لا ينبغى أن يجعل مملوكه شريكه فقال : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فاذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم[٢] وهذا كما كانوا يقولون : له بنات ، فقال تعالى (ويجعلون لله ما يكرهون[٣] وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ، لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) وقد قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان : قوم نوح وقوم ابراهيم ، فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم ، وقوم ابراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر . وكل من هؤلاء وهؤلاء يعبدون الجن فان الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا فى الحقيقة إنما يعبدون

---

(١) الآيات من سورة الروم ومعنى حنيفا مستقيما منزها فيه الله عن الشركاء وهذه فطرة الله التى خلق عليها الناس يعرفون بفطرهم السليمة أنه لا شريك له .

(٢) أى فكيف ترضون لأنفسكم أن تشركوا بربكم مملوكه مع أنكم لم ترضوا ذلك لأنفسكم

(٣) كان الكفار يقولون الملائكة بنات الله وهم يكرهون البنات حتى ان أحدهم اذا بشر بأنثى ولدت له ظل وجهه مسودا كاظما غيظه فى نفسه وكانوا يدفنونهن أحياء ويتوارون منهن عارا وقد ورد ذلك فى قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون) .

الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا ابراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا على ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبى فلان أو الشيخ فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جنا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصى وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخا فيتزيا فى صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك فى برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاما ويسقيه شرابا أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة (١) فيظن ذلك الرجل أن الشيخ الميت أو الحى نفسه فعل ذلك (٢) ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته ، أو هذا ملك جاء على صورته . وإنما يكون ذلك جنيا فان الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان . وقد قال الله تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أى نطلب من الملائكة

---

(١) المراد ببعض الأمور الواقعة الغائبة الأمور التى حدثت ولكن لم يعلمها هذا الشخص الإنسى وكان الجن يسترقون السمع ويعلمون بعض المغيبات الى أن أرسل الله عليهم الشهب

(٢) كان التركيب فى الأصل الذى علقنا عليه هو (فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك) وظاهر أن هذا التركيب خطأ من جهة اللغة والنحو . لأن التوكيد لا يتقدم على المؤكد وكلمة نفس توكيد لكلمة الشيخ . ولو قدمت عليها كما فى الأصل لاختلف المعنى ولم يؤد المطلوب

والأنبياء أن يشفعوا فاذا أتينا قبر أحد طلبنا منه أن يشفع لنا فاذا صورنا تمثاله — والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى فى كنائسهم — قالوا فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله. فيقول أحدهم: ياسيدى فلانا أو ياسيدى جرجس أو بطرس أو ياستى الحنونة مريم أو ياسيدى الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك، استغفر لى إلى ربك، وقد يخاطبون الميت عند قبره: سل لى ربك، أو يخاطبون الحى وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها: يا سيدى فلانا! أنا فى حسبك، أنا فى جوارك، اشفع لى إلى الله، سل الله لنا أن ينصرنا على عدونا، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة، أشكو إليك كذا وكذا فسل الله أن يكشف هذه الكربة. أو يقول أحدهم: سل الله أن يغفر لى. ومنهم من يتأول[1] قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك اجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين فإن أحدا منهم لم يطلب من النبى ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكر من متأخرى الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضى الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها ان شاء الله تعالى.

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب، وفى مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى. قال الله تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ؟[2]) فان دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم

---

(١) تأولهم لهذه الآية أنهم يقولون جاءوك أى فى الحياة أو فى الممات سيان فيذهبون إليه بعد موته ويستغفرون الله عنده ويسألونه أن يستغفر لهم مع أن الآية خاصة بالحياة.

(٢) الآية من سورة الشورى ومعنى أم لهم شركاء بل ألهم شركاء - إضراب مع استفهام

وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم فى هذه الحال - وتماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذى لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان . وفيهم من ينظم القصائد فى دعاء الميت والاستشفاع به والاستغاثة أو يذكرون ذلك فى ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ولا واجب ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فان الله لايعبد إلا بما هو واجب أو مستحب ، وكثير من الناس يذكرون فى هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأى أو الذوق أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقين : أحدهما - وهو -(١) الاحتجاج بالنص والاجماع والثانى القياس والذوق والاعتبار ببيان ما فى ذلك من الفساد فان فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وباجماع سلف الأمة وأئمتها ان ذلك ليس بواجب ولامستحب ، وعلم أنه لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ويستشفعوا بهم لابعد مماتهم ولافى مغيبهم ، فلا يقول أحد : ياملائكة الله اشفعوا لى عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أويهدينا . وكذلك لايقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يانبي الله يارسول الله ! ادع الله لى سل الله لى استغفر الله لى

إنكارى أى ليس لهم من يشرع لهم غير شرع الله

(١) لعله قد سقط شىء هنا من النساخ ككلمة العمدة أو الأقوى فان الاول أقوى الجوابين والعمدة فيهما وإلافلاحاجة إلى كلمة « وهو » (ر)

سل الله لى أن يغفر لى أو يهدينى أو ينصرنى أو يعافينى ، ولا يقول أشكوا إليك ذنوبى أو نقص رزقى أو تسلط العدو على ، أو أشكو إليك فلانا الذى ظلمنى ، ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك ، أو : انت تجير من يستجيرك ، أو انت خير معاذ يستعان به ، ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور[1] ولا يكتب أحد محضرا انه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين كما يفعله النصارى فى كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو فى مغيبهم - فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وباجماع المسلمين أن النبى ﷺ لم يشرع هذا لأمته . وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم باحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لا فى مناسك الحج ولا غيرها انه يستحب لأحد أن يسأل النبى ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين . وكان أصحابه يبتلون بأنواع البلاء بعد موته فتارة بالجدب وتارة بنقص الرزق وتارة بالخوف وقوة العدو وتارة بالذنوب والمعاصى ولم يكن أحد منهم يأتى إلى قبر الرسول ﷺ

---

(١) يكثر ذلك فى مصر فى القاهرة فى قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث يكتب الناس الخطابات إليه بحاجاتهم ويطلبون منه قضاءها وذلك مخالف للدين ، وإذا كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقرأ الخطابات وهو ميت فأولى به أن يعلمها بدون كتابة بأن يكون ذلك مشافهة كما يفعل العوام عند قبور غيره من الصالحين كالإمام الحسين والسيدة زينب وغيرهم ، وأكثر هؤلاء الذين يفعلون ذلك مدخولون فى عقولهم مستول عليهم الجهل والعمى حتى إنهم يقصدون غير الله ويتركون رب السموات والأرض وخالق الخلق ورازقهم الذى هو أعلم بحالهم الظاهرة والخفية وهو يعلم السر وأخفى ، وهو القائل «ادعونى استجب لكم» ولم يقل ادعوا الرسول ولا فلانا من الصالحين ، والامام الشافعى رضى الله عنه لا يرضى بذلك وهو الذى بنى مذهبه على السنة وقال (إذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولى عرض الحائط) وإذا كان الرسول ﷺ يقصد ربه ويدعوه أفلا تكون لنا أسوة حسنة بنبينا ﷺ فندعوا ربنا ونبتعد عن دعاء غيره ، إن قصد غير الله شرك وضلال مبين نسأل الله الهداية والتوفيق إلى الصراط المستقيم

ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكو إليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التى لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين . وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهى بدعة سيئة وهى ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال فى بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك اذا قام دليل شرعى انها مستحبة ، فاما ماليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين انها من الحسنات التى يتقرب بها الى الله ومن تقرب الى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان وسبيله من سبيل الشيطان كما قال عبد الله بن مسعود[١] خط لنا رسول الله ﷺ خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال « هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه » ثم قرأ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله ان يتبعه ولا يخالف السنة المعلومة وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، فاتباع من خالف السنة والإجماع القديم[٢] لا سيما وليس معه فى بدعته إمام من أئمة المسلمين ولا مجتهد يعتمد على قوله فى الدين ، ولا من يعتبر قوله فى مسائل الاجماع والنزاع فلا ينخرم الاجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الاجاع على موافقته ، ولو قدر أنه نازع فى ذلك عالم مجتهد لكان مخصوصا بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذاً المنازع[٣] ممن ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعى ، وانما

---

(١) الحديث رواه أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائى وغيرهم وصححه الحاكم ولفظه : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال « وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه » ثم قرأ (وان هذا صراطى) الآية (ر) (٢) ليس فى لاحق الكلام خبر لهذا المبتدأ فالظاهر أنه قد أسقطه النساخ وأن الأصل هكذا « فاتباع من خالف السنة والاجماع القديم غير جائز لاسيما » الخ أو تضع بدل غير جائزة كلمة « بدعة »

(٣) كذا الأصل ولعل صوابه و « المنازع » أو « فكيف إذا كان المنازع » (ر)

اتبع من تكلم فى الدين بلا علم ، ويجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . بل ان النبى ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجبا ولا مستحبا فانه قد حرم ذلك وحرم ما يفضى اليه كما حرم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، فى صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبى ﷺ قال قبل أن يموت بخمس « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألافلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » وفى الصحيحين عن عائشة أن النبى ﷺ قال قبل موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجدا إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله . والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة[1] لما فى ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذى[2] يفضى الى الشرك . وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات ، ولهذا تنازع العلماء فى ذوات[3] الأسباب فسوغها كثير منهم فى هذه الأوقات ، وهو أظهر قولى العلماء لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الأسباب يحتاج اليه فى هذه الأوقات ويفوت

---

(١) الأوقات الثلاثة وقت طلوع الشمس واستوائها فى وسط السماء وغروبها

(٢) المراد التشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها ويعظمون الأوقات الثلاثة

(٣) أى فى الصلوات التى لها أسباب كالفائتة والسنة المؤقتة وسنة الوضوء وتحية المسجد وتوابع الفرائض ونحو ذلك فلا تحرم فى هذه الأوقات

إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها . فأبيحت لما فيها من المصلحة ، بخلاف مالا سبب[١] له فانه يمكن فعله فى غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهى عنه . فاذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ، كان معلوما أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم فى نفسه أعظم تحريما من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى الى دعاء الكواكب ـ كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضى ذلك الى دعائهم والسجود لهم ، كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .

ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام[٢] على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى فى المنافقين ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهى الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهى عند انتفاء هذه العلة ، ودل تخصيصهم بالنهى على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع فى حق أحد لم يخصوا بالنهى ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبى ﷺ يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول « سلوا له التثبيت فانه الآن يسئل » رواه أبو داود وغيره وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحُد ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن

---

(١) مالا سبب له هو النفل المطلق الذى يتطوع به المصلى لوجه الله من غير أن يرد فيه نص بتوقيت

(٢) المراد بالقيام على قبره زيارته وليست الزيارة مقيدة بالقيام بل اذا زار المرء القبر جالسا أو مضجعا جاز والتعبير بالقيام للغالب

يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ؛ وإنا ان شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لاتحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » والأحاديث فى ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التى تجوز فى قبور الكفار كما ثبت فى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، فاستأذنته أن أزور قبرها فاذن لى ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التى تنفع فى تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً بخلاف الزيارة التى يقصد بها الدعاء للميت فتلك لاتشرع إلا فى حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهى التى يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء .

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبى ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبى ﷺ ولا عند غيره ، وهى من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرما منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضا لغضب الله ولعنته كما قال النبى ﷺ « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . وقال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » فاذا كان هذا محرما وهو سبب لسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء[1] عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب

---

(١) دعاء الميت هو رجاؤه نفسه أن يقضى الحاجات كمن يقول يا سيدى يا بدوى اشف لى مريضى أو اقض لى حاجتى أو انصرنى على عدوى أو اقصف عمر عدوي ونحو ذلك ،

إجابة الدعوات ونيل الطلبات(١) وقضاء الحاجات ، ؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخارى وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ۞ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) ان هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه (كصاحب النسر(٢) المضنون بها) وغيرها ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم فانهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ولا أنه يعلم الجزئيات ويسمع أصوات عباده ويجيب دعاءهم فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ، كما أن ما يكون من انزال المطر باستسقائهم ليس سببه عندهم إجابة دعائهم ، بل هم يزعمون ان المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون ان الإنسان إذا أحب

والدعاء عنده أن يعتقد الداعى أن هذا المكان الذى فيه القبر مكان طاهر يجاب فيه الدعاء فيدعو الله فيه ، وهذا أيضا حرام لأن فيه سبيلا الى دعاء الميت في المستقبل أو اعتقاد أن للميت أثرا في إجابة الدعاء ، والدعاء به أن يتوسل به الى الله حتى يجاب دعاؤه كمن يقول ياسيدى ابراهيم يادسوقى نفسك قريب من الله اطلب لى منه أن يشفينى أو ينصرنى أو يخرج ابنى من الجيش أو يقول يا الله أتوسل اليك بجاه الامام الحسين أن تقضى لى حاجتى فهذا كله شرك وضلال وينبغى ألا يقصد غير الله فهو أعلم بعبده وأقرب اليه من حبل الوريد ، ولا تنفع عنده الوساطات ولا يصعد اليه أحد بالدعوات وإنما هو كما قال (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)

(١) الطلبات بفتح الطاء وكسر اللام جمع طلبة وهى الحاجة

(٢) كذا بالاصل ولعله تحريف من الناسخ

رجلا صالحا قد مات لاسيما ان زار قبره فانه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك - بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك ومثلوا ذلك بالشمس اذا قابلها مرآة فانه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم .

وفى هذا القول من أنواع الكفر مالا يخفى على من تدبره ، ولاريب ان الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب مايظن انه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم وانما هو شيطان فان الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذبا فى ذلك[1] .

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره وهى كثيرة جداً والجاهل يظن ان ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أوكلمه هو المقبور أو النبي

---

(١) كما تحدث هذه الأمور من شياطين الجن الذين يتصورون بصور الإنس تحدث أيضا من شياطين الإنس الذين يستغلون عقائد الناس الفاسدة فيذهبون الى المقابر ويكلمون زائريها بكلام ينسبونه الى الميت ، أو يلبسون السواد ويغيرون أشكال وجوههم ليخيفوا الزائرين فى الليل ليوهموهم أن العفاريت تسكن الجبانات أو ليوحوا اليهم كلاما فى صالح بعض الدجالين الذين يعيشون فى المدينة أو القرية بايعاز الدجالين وباتفاق معهم ، وقد يحدث ذلك بسبب التخيل والأوهام ولاسيما اذا كان الوجود عند القبور ليلا فان الزائر فى هذا الوقت يكون خائفا فزعا بما فى نفسه من العقائد أو متشوقا لرؤية الميت الصالح لما سمعه من أن الموتى يخرجون فيقابلون بعض زائريهم ، وكل ذلك لم يره أحد معاصرينا ولا نكاد نصدق من عاش قبلنا فى رواياتهم عن ذلك لأن أكثر المروى كذب يراد به إثبات عقائد الضلال فى أذهان الناس .

أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم انه شيطان ويتبين ذلك بأمور (أحدها) أن يقرأ آية الكرسى بصدق فاذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ فى الأرض أو احتجب ولو كان رجلا صالحاً أو ملكا أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسى وإنما تضر الشياطين كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة لما قال له الجنى : إقرأ آية الكرسى إذا أويت إلى فراشك فانه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ « صدقت وهو كذوب » (ومنها) أن يستعيذ بالله من الشياطين (ومنها) أن يستعيذ بالمعوذة[1] الشرعية فان الشياطين كانت تعرض للأنبياء فى حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم كما جاءت الجن إلى النبى ﷺ بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالمعوذة المعروفة التى تضمنها الحديث المروى عن أبى التياح انه قال سأل رجل عبد الرحمن ابن حبش [2] وكان شيخا كبيراً قد أدرك النبى ﷺ كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدرت عليه من الشعاب والأودية وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ ، قال فرعب رسول الله ﷺ فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد « قل » قال « ما أقول؟ » قال قل « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ [3] وبرأ ، من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » قال فطفئت نارهم وهزمهم الله عزوجل

---

(١) المعوذة الشرعية التى يريدها المؤلف هى التى علمها جبريل للنبى ﷺ فى الحديث الاتى فى هذه الصفحة ، والمعوذات الشرعية العامة هى سورة الناس وسورة الفلق ، وما روى عن النبى ﷺ من قوله (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة)

(٢) صوابه كما فى الاصابة « خنبش » بالمعجمة الفوقية بعدها نون بوزن جعفر ، وقيل « حبشى » بضم الحاء المهملة والخاء المشددة وقيل « خنيس » قال الحافظ فى الاصابة : ذكره البخارى فى الصحابة وقال فى اسناده نظر . وقال ابن منده : فى حديثه ارسال أبو نعيم - أقول وهذا الحديث - وليس له غيره - وقد روى الحديث من طريق جعفر بن سليمان الرافضى وهو ممن ضعفه بعضهم ، والمصنف لم يصحح الحديث (ر)

(٣) ذرأ وبرأ معناها خلق وأنشأ

وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة انه قال : قال رسول الله ﷺ « ان عفريتاً من الجن جاء يفتك بى البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله عز وجل منه فذعته[١] فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا اليه ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام (رَبِّ اغْفِرْ لى وَهَبْ لى مُلْكًا لا يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى) فرده الله تعالى خاسئاً » وعن عائشة أن النبى ﷺ كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه[٢] فخنقه ، قال رسول الله ﷺ « حتى وجدت برد لسانه على يدى ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً[٣] حتى يراه الناس » أخرجه النسائى واسناده على شرط البخارى كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسى فى مختاره الذى هو خير من صحيح الحاكم . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان يصلى صلاة الصبح وهو خلفه[٤] فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتمونى وابليس فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين - الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » رواه الامام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه . وفى صحيح مسلم عن أبى الدرداء أنه قال قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول « أعوذ بالله منك » ثم قال « ألعنك بلعنة الله ثلاثا » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من صلاته قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً فى الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال « ان عدو الله ابليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة ، فاستأخر . ثم أردت أن آخذه ، ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان المدينة » فاذا كانت الشياطين تأتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

---

(١) أى اجتحته وهزمته واستوليت عليه

(٢) أى أخذ النبى ﷺ العفريت فألقاه على الأرض فخنقه حتى خرج لسانه من فمه بسبب شدة الخنق وحتى أحس الرسول ﷺ ببرد لسان العفريت أو ببرد لعابه على يده على اختلاف الروايات

(٣) أى مربوطا إلى إحدى أعمدة المسجد كما يفسر ذلك بعض الروايات الأخرى

(٤) أى وأبو سعيد خلف النبى ﷺ

لتؤذيهم وتفسد عبادتهم فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد فكيف من هو دون الأنبياء ؟ فالنبي ﷺ قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعا للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء . وأما من ابتدع دينا لم يشرعوه فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لاشريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم فان هذا يتلعب[1] به الشياطين ، قال تعالى (إِنَّهُ[2] لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ[3] عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

(ومنها) أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال (ومنها) أن يقول لذلك الشخص أأنت فلان؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين .

وهذا كما ان كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشا عظيما وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن ان تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس ، ويكون ذلك شيطانا . وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس فمنهم من عصمه الله وعرف انه الشيطان كالشيخ عبد القادر[4] في حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة في العبادة فرأيت عرشا عظيما وعليه نور فقال لي : يا عبد القادر ! أنا ربك وقد حللت الك ما حرمت على غيرك . قال ، فقلت له أأنت الله الذي لا إله إلا هو ؟ اخسأ يا عدو الله . قال فتمزق ذلك النور وصار ظلمة وقال:

---

(١) لعل صواب العبارة تلعب به الشياطين

(٢) الضمير في أنه يعود على الشيطان الرجيم المذكور في الآية السابقة على هذه الآية وهي « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » والآيات من سورة النحل

(٣) الخطاب لإبليس

(٤) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني العالم الاسلامي المتصرف المشهور

يا عبد القادر ، نجوت منى بفقهك فى دينك وعلمك وبمنازلتك فى أحوالك ، لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا . فقيل له : كيف علمت انه الشيطان ؟ قال بقوله لى « حللت لك ما حرمت على غيرك » وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لاتنسخ ولاتبدل ولأنه قال أنا ربك ولم يقدر أن يقول أنا الله الذى لا إله إلا أنا [1]

ومن هؤلاء من اعتقد ان المرئى هو الله وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى فى اليقظة ومستندهم ماشاهدوه ، وهم صادقون فيما يخبرون به ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان ، وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه فى الدنيا لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما هو شيطان ، وكثير منهم رأى من ظن أنه نبى أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطانا وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فان الشيطان لايتمثل فى صورتى » فهذا فى رؤية المنام لأن الرؤية فى المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به فى المنام وأما فى اليقظة فلا يراه أحد بعينه فى الدنيا فمن ظن ان المرئى هو الميت فانما أتى [2] من جهله ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وبعض من رأى هذا أو صدق من قال إنه رآه اعتقد ان الشخص الواحد يكون بمكانين فى حالة واحدة فخالف صريح المعقول ، ومنهم من يقول هذه رقيقة [3] ذلك المرئى أو هذه روحانيته أو هذا معناه لشكل [4] ولا يعرفون أنه جنى تصور بصورته . ومنهم من يظن أنه ملك والملك يتميز عن الجنى بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار

---

(١) انما يتجه الكلام بحذف كلمة الذى أو بوضع كلمة هو بدل كلمة أنا الاخيرة «ر» . أقول يتجه الكلام من غير حذف ولا زيادة على أن فى الكلام التفاتا من الغيبة إلى التكلم ، وهو أسلوب بلاغى ورد كثيرا فى القرآن والحديث وكلام العرب

(٢) معنى هذه الجملة . أن من ظن أن الميت أحيى له حتى رآه فى اليقظة ، فإنما أتى أى دخل عليه هذا الظن وصدقه واعتقد أنه حق بسبب جهله وعدم رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة

(٣) الرقيقة هى مايعبر عنها الناس بالقرينة وهى الشبح أى شبح المرئى مصورا بصورته

(٤) لعلها تشكل أى ظهر فى شكل حسى «ر»

والفساق والجهال وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ تسليما ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنزل على أحدهم روح يقول هي روحانية الكواكب ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان ، فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها ، وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك ، وتارة يجلبون له من يريد من الإنس ، وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقا ، وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد ، فمنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبى ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال . ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية فلا يحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكا بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرما ، ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع ومنه السحر والكهانة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبيا كان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ، كما أن الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم أو يظنون أنه في صورتهم ويقول أنا فلان ويكلمهم ويقضي بعض حوائجهم فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم وإنما هو من الجن والشياطين ، ومنهم من يقول هو ملك من الملائكة والملائكة لا تعين المشركين وإنما هم شياطين أضلوهم عن سبيل الله .

وفى مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التى يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه . وأهل الجاهلية فيها نوعان : نوع يكذب بذلك كله ، ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله . فالأول يقول إنما هذا خيال فى أنفسهم لا حقيقة له فى الخارج ، فإذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة فمن رأى ذلك وعاينه موجوداً أوتواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً فى الخارج وأخبره به من لا يرتاب فى صدقه كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك والعارفين به بالاخبار الصادقة .

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدى فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ولا يجتنب محارم الله لا الفواحش ولا الظلم بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التى وصف الله بها أولياءه فى قوله تعالى : (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكاشفات والتصرفات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين ، فمنهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه ويعتقد فيمن لا يصلى بل ولا يؤمن بالرسل بل يسب الرسل ويتنقص بهم أنه من أعظم أولياء الله المتقين . ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكا مرتاباً يقدم إلى الكفر رجلا وإلى الاسلام أخرى[1] وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان وسبب ذلك أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها فان الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) وهؤلاء لا بد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذى بعث به نبيه ﷺ . وتلك الاحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم ، وهى دلالة وعلامة على ذلك . والجاهل الضال يظن أنها نتيجه إيمانهم

---

(١) هذا معنى مثل عربى أصله فلان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ومعناه فلان يقدم رجله تارة ويؤخرها تارة أخرى وهو كناية عن التردد فى الأمر وعدم الإقدام عليه إقدام الواثق المطمئن ، وليس المعنى أنه يقدم رجلا ويؤخر رجلا أخرى وإلا لما فهم معنى المثل

وولايتهم لله تعالى وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما قد تكلمنا على ذلك فى مسئلة الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. ولم يعلم أن هذه الاحوال التى جعلها دليلا على الولاية تكون للكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم مما تكون للمنتسبين إلى الاسلام والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله، فإذا وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للايمان فضلا عن الولاية ولا كانت مختصة بذلك فامتنع أن تكون دليلا عليه.

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق، وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة الدين أو لحاجة للمسلمين، والمقتصدون قد يستعملونها فى المباحات، وأما من استعان بها فى المعاصى فهو ظالم لنفسه متعد حد ربه، وإن كان سببها الايمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها فى طاعة الشيطان فهذا المال وإن ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقه فى طاعة الشيطان كان وبالا عليه فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهى تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان، ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام. ولبسط هذه الأمور موضع آخر.

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الأوثان كاخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك، فاذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهى عانقه أو كلمه ظن أن ذلك هو النبى المقبور والقبر لم ينشق وإنما الشيطان مثل له ذلك كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان، ويكون هو الشيطان تمثل له صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط.

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذى رآه قد خرج من القبر نحن لانبقى فى قبورنا بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشى بين الناس. ومنهم من يرى ذلك الميت فى الجنازة يمشى ويأخذ بيده إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها. وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبى أو الرجل الصالح أو ملك على صورته. وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك

الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسي .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى : (مَاكَانَ لبَشَرٍ أنْ يُؤْتيهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبوَّةَ ثمَّ يَقُولَ للنَّاس كُونُوا عباداً لى من دُونِ الله ، وَلَـكن كُونُوا رَبَّانيِّينَ بمَا كُنْتُمْ تعلّمُونَ الْكِتَابَ وَبمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أنْ تَتَّخِذُوا المَلاَئكَةَ وَالنَّبيِّينَ أرْبَاباً أيَأْمُرُكُمْ بالْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ من دُونه فَلاَ يَمْلكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْويلاً * أولئكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسيلَةَ أيُّهُمْ أقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ الله لاَيَمْلكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ وَلاَ في الأرْضِ وَمَا لَهُمْ فيهِمَا من شِرْكٍ وَمَا لَهُ منْهُمْ من ظَهِيرٍ ، وَلاَتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أذِنَ لَهُ) . ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فان هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك . بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فانه لا يفضى إلى ذلك ، فان أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فانه ينهى من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم فان ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك ، فمن رأى نبيا أو ملكا من الملائكة وقال له « ادع لى » لم يفض ذلك إلى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه فان ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع فان الغائب والميت لاينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

وقال تعالى (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى أن النبى ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد . وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون لوجهين (أحدهما) أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة فى الطلب منهم (الثانى) أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم فى هذه الحال يفضى إلى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة ، فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة فكيف ولا مصلحة فيه ، بخلاف الطلب منهم فى حياتهم وحضورهم فانه لا مفسدة فيه فانهم ينهون عن الشرك بهم ، بل فيه منفعة وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فانهم فى دار العمل والتكليف وشفاعتهم فى الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التى لا يجب عليهم فعلها ليس واجبا على السائل ولا مستحباً بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه وسؤال الخلق فى الأصل محرم لكنه أبيح للضرورة وتركه توكلا على الله أفضل ، قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب[1] وإلى ربك فارغب) أى ارغب إلى الله لا إلى غيره ، وقال

---

(١) انصب أي اتعب فى العبادة بعد فراغك من شئون الدنيا .

تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) فجعل الإيتاء لله والرسول ، لقوله تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فأمرهم بارضاء الله ورسوله . وأما فى الحسب فأمرهم أن يقولوا « حسبنا الله » لا أن يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ويقولوا « إنا إلى الله راغبون » لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى فى الآية الأخرى (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده

وقد قال النبى ﷺ لابن عباس « ياغلام ! إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضاء مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيراً كثيرا » ، وهذا الحديث معروف مشهور ولكن قد يروى مختصرا وقوله « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » هو من أصح ما روى عنه - وفى المسند لأحمد أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى إياه ، ويقول : خليلى أمرنى أن لا أسأل الناس شيئا . وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبى ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسر إليهم كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا ، قال عوف فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد : ناولنى إياه .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب » ، وقال : « هم الذين لا يسترقون [1] ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم

---

(١) بين المؤلف معنى الاسترقاء من قوله يسترقون وهو طلب الرقيا المعروفة ولا يكتوون أى لا يستعملون الكى بالنار والنهى عنه مقيد بما اذا لم يكن دواء فإذا كان علاجا من مرض فهو مستحب بل واجب اذا تعين علاجا ، ولا يتطيرون أى لا يتشاءمون وقد قال

يتوكلون ، فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أى لا يطلبون من أحد أن يرقيهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك . وقد روى فيه « ولا يرقون » وهو غلط فان رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبى ﷺ يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم . وما يروى أن الخليل لمـا ألقى فى المنجنيق[1] قال له جبريل سل قال « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ليس له إسناد معروف وهو باطل بل الذى ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه قال « حسبى الله ونعم الوكيل » قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »[2] ، وقد روى أن جبريل قال[3] هل من حاجة قال « أما إليك فلا » وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره . وأما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور فى القرآن فى غير موضع فكيف يقول حسبى من سؤالى علمه بحالى ! والله بكل شىء عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هى عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافى أن يأمر هذا

رسول الله ﷺ « لاعدوى ولاطيرة » أى لاعدوى من المرض مؤثرة بنفسها وانما يكون ذلك اذا أراد الله ، والطـيرة التشاؤم والتشاؤم من عادات الجاهلية كانوا إذا رأو الشىء لا يحبونه تشاءموا منه وأيقنوا أنهم سيحدث لهم الضرر برؤيته ، وقد أفسدت عليهم هذه العقيدة حياتهم فكانوا يؤجلون سفرهم أو يمتنعون عن الخروج من منازلهم إذا رأوا ما يكرهونه أوسمعوا كلمة سيئة أوصوت حيوان كالغراب مثلا أوالبومة ولبعض المتشائمين أحوال يرثى لها العقلاء لما يجلب التشاؤم لأهله من الضرر وفوات المصالح .

(١) هو آلة كبيرة تقذف بها الحجارة الى مكان بعيد وكانت تستعمل فى الحرب قديما وقد وضع ابراهيم عليه السلام فى هذه الآلة ليقذف فى النار .

(٢) هذا جزء من آية من سورة آل عمران وتمامها « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ومعنى ان الناس قد جمعوا لكم - ان أعداءكم قد جمعوا الجموع وحشدوا الجيوش لحربكم .

(٣) أي قال لإبراهيم عليه السلام حين ألقي فى النار .

بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التى تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التى بها ينال كرامته . ولكن العبد قد يكون مأمورا فى بعض الاوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روى فى الحديث « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وفى الترمذى عن النبى ﷺ أنه قال « من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال الترمذى حديث حسن غريب .

وأفضل العبادات البدنية الصلاة وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل واحد فى موطنه مأمور به ، ففى القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن ـ وفى الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالدعاء كما كان النبى ﷺ يدعو فى آخر الصلاة ويأمر بذلك والدعاء فى السجود حسن مأمور به ويجوز الدعاء فى القيام أيضا . وفى الركوع وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به ، وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقال تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به وقد ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء

عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر(١) الغيب إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل آمين ولك بمثله » أى بمثل ما دعوت لأخيك به

وأما سؤال المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) وقال تعالى (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا: أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة. وهو يزكو(٢) على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل. ولهذا يشبه بالمصباح، وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة، لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده، وكذلك مال الفىء(٣) وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولى الأمر، للرجل أن يطالب حقه منه كما يطالب حقه من الوقف والميراث والوصية، لأن المستولى يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه. ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه، كما استطعم موسى والخضر أهل القرية. وكذلك الغريم له أن يطالب دينه ممن هو عليه. وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه، فالبائع يسأل الثمن والمشترى يسأل المبيع. ومن هذا الباب قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)(٤)

ومن السؤال ما لا يكون مأموراً به، والمسئول مأمور بإجابة السائل. قال تعالى

---

(١) بظهر الغيب أى والمدعو له غائب غير حاضر الدعاء حيث يكون الدعاء أبعد من الرياء ولا يتمكن المدعو له من الرد على الداعى فيوكل الله الملك لينوب عن المدعو له.

(٢) يزكو أى يزيد ويبارك الله فيه ويعطى صاحبه المزيد من علمه وفضله.

(٣) الفىء هو ما يحصل عليه المسلمون من الكفار بدون حرب وهذا يقسم على المسلمين وعلى الرسول ﷺ فى حياته ولقرابته بعد موته وللفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل فللمستحق فيه أن يسأل حقه منه.

(٤) الآية من سورة النساء ومعنى تساءلون به تحلفون به عند سؤال بعضكم لبعض الحاجات التى يحل سؤالها.

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) وقال تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ)[١] ومنه الحديث (إن أحدكم ليسألنى المسألة فيخرج بها يتأبطها[٢] نارا ، وقوله « اقطعوا عنى لسان هذا »[٣] .

وقد يكون السؤال منهيا عنه نهى تحريم أو تنزيه وإن كان المسئول مأمورا بإجابة سؤاله ، فالنبى ﷺ كان من كماله أن يعطى السائل وهذا فى حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهيا عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين كما أشار عليه عمر فى بعض مغازيه لما استأذنوه فى نحر بعض ظهرهم[٤] فقال عمر : يارسول الله كيف بنا إذا لقينا العدوغداً رجالا[٥] جياعا ! ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فان الله يبارك لنا فى دعوتك ، وفى رواية فان الله سيغيثنا بدعائك . وإنما كان ساله ذلك بعض المسلمين ، كما ساله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، وكما سالته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس ، وكما ساله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

---

(١) الآية من سورة الحج وتمامها « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » . والبدن جمع بدنة وهى الجمال تهدى الى البيت الحرام وتذبح وتفرق على أهله والقانع الفقير الذى لم يسأل والمعتر المعترض للسؤال .

(٢) يتأبطها أى يجعلها تحت إبطه وهو آخر الجنب من الصدر وآخر العضد والمراد أنه اذا سأل وهو غير مستحق فأخذ شيئا وخرج به من عند الرسول فكأنما يخرج حاملا نارا

(٣) المراد باللسان هنا أثره وهو السؤال يقول ﷺ للصحابة أعطوا هذا السائل حتى يقطع عنى لسانه أى سؤاله .

(٤) المراد بالظهر مايركب من الدواب وسمى ظهرا تسمية بمحل منفعته لأن الظهر هو الذى يركب ويحمل عليه ونحو ذلك .

(٥) الرجال جمع راجل وهو الماشى على رجله وقد ورد ذلك فى قوله تعالى « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر » أى مشاة وراكبين .

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفى مثله (وَسَيُجَنَّبُهَا(١) الأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وقد ثبت فى الصحاح عنه أنه قال ﷺ « إن أمن الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » فلم يكن فى الصحابة أعظم منة من الصديق فى نفسه وماله . وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من مخلوق فقال تعالى (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فانه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبى ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم وتلك النعمة لا تجزى ، فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ) وأما على وزيد(٢) وغيرهما فان النبى ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى ، فإن زيداً كان مولاه فاعتقه . قال تعالى (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وعلى كان فى عيال النبى ﷺ لجدب أصاب أهل مكة فاراد النبى ﷺ والعباس التخفيف عن أبي طالب من عياله ، فاخذ النبى ﷺ علياً إلى عياله وأخذ العباس جعفراً إلى عياله ، وهذا مبسوط فى موضع آخر ، والمقصود هنا أن الصديق كان أمنّ الناس فى صحبته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله ﷺ ، لكونه كان ينفق ماله فى سبيل الله كاشترائه المعذبين(٣) . ولم يكن النبى ﷺ محتاجاً فى خاصة نفسه لا إلى أبي بكر ولا غيره بل لما قال له فى سفر الهجرة . إن عندى راحلتين نخذ إحداهما ، قال النبى ﷺ « بالثمن » فهو أفضل صديق لأفضل نبي ، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد من الخلق لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم .

---

(١) الهاء فى سيجنبها . للنار التى تقدم ذكرها فى قوله تعالى « فانذرتكم نارا تلظى لا يصليها الا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذى » الآية من سورة « الليل »

(٢) هو زيد بن ثابت حب رسول الله ﷺ وكان عبدا له فأعتقه

(٣) لما عذب المشركون عبيدهم من المسلمين كان أبو بكر رضى الله عنه يشتريهم ويعتقهم ويخلصهم من سلطة المشركين .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثنى عليهم[١] (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) والدعاء جزاء كما فى الحديث « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول : اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله . وقال بعض السلف إذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل وفيك بارك الله ، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبيا أو رجلا صالحا أو ملكا من الملوك أو غنياً من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بان يفعل ذلك خالصاً لله يبتغى به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره ، لا من نبى ولا رجل صالح ولا ملك من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين .

وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد دينا غيره ، قال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ) وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام قال نوح (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ)[٢] وقال عن إبراهيم (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال موسى (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وقالت السحرة

---

(١) هذه الآية وغيرها من سورة الدهر فى مدح الابرار وأوصافهم التى ذكرها الله تعالى بقوله « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم » ، الآية أى يطعمونهم قائلين لهم انما نطعمكم لوجه الله لا لجزاء أو شكر منكم أو من غيركم .

(٢) تمام هذه الآية (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) من سورة يونس وقبلها (واتل عليهم نبأ نوح) الآية .

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) وقال يوسف (تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) ، وقال تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) وقال عن الحواريين (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) .

ودين الإسلام مبنى على أصلين . أن نعبد الله وحده لا شريك له وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب ، فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان . فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين وكذلك شريعة الإنجيل .

وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى ﷺ يصلى إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام ، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام ، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام ، فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم . ولابد فى جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) وقال تعالى (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال هو مأمور بأن يفعله خالصا لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا فى بعض المواضع ، ويكون المسئول مأموراً بالاعطاء قبل السؤال ، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ . فانه أجل قدرا وأغنى بالله عن غيره ،

فان سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهى من نوع الشرك ، ومفسدة إيذاء المسئول وهى من نوع ظلم الخلق ، وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس [١] فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله . وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات ، وإن كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضا ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة ، فانه ثبت عنه فى الصحيح أنه قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء » ومحمد ﷺ هو الداعى إلى ماتفعله أمته من الخيرات فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شىء . ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا اليه ثواب الأعمال لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الاهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شىء . وليس كذلك الأبوان فانه ليس كل مايفعله الولد — للوالد مثل أجره ، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب ، كما قال فى الحديث الصحيح « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » فالنبى ﷺ فيما يطلبه من أمته من الدعاء طلبه طلب أمر وترغيب ليس بطلب سؤال فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه فهذا أمر الله به فى القرآن بقوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والأحاديث عنه فى الصلاة والسلام معروفة . ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا علىّ فانه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت

---

(١) هذا إذا كان السائل غير محتاج ولا مضطر أما إذا كان محتاجا ومضطرا ليحفظ حياته من الهلاك فتغفر له هذه المفاسد وتنقلب إلى مستحب أو واجب إذا تعين السؤال لحفظ الحياة ولا يجوز أن يترك المضطر السؤال تجنبا لهذه المفاسد حتى يموت فإنه إن فعل ذلك كان آثما لتضييع حياته مع إمكانه حفظها وقد قال تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

عليه شفاعتي يوم القيامة » وفي صحيح البخاري عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال « من قال حين سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لاتخلف الميعاد . حلت له شفاعتي يوم القيامة » فقد رغب المسلمين في أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبين أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا : فان الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال « لا تنسنا يا أخي من دعائك » فطلب النبي ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلي عليه ويسلم عليه وأن يسئل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ، فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان اليه . وهو ﷺ أيضا ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به ، وينتفع أيضا بالخير الذي يفعلونه من الاعمال الصالحة ومن دعائهم له .
ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال « ماشئت » قال الربع ؟ قال « ماشئت وإن زدت فهو خير لك » قال النصف ؟ قال « ماشئت وإن زدت فهو خير لك » قال الثلثين ؟ قال « ماشئت وإن زدت فهو خير لك » قال أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال « إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما ، وقد بسط الكلام عليه في جواب المسائل البغدادية .
فان هذا كان له دعاء يدعو به ، فاذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فانه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة « آمين ولك بمثله » فدعاؤه للنبي ﷺ اولى بذلك

ومن قال لغيره من الناس : ادع لي أولنا وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي ﷺ مؤتم به ، ليس هذا من السؤال المرجوح . وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والاحسان اليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الاحياء السؤال الجائز المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع لا واجب ولا مستحب بل ولا مباح ، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ، لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل يكون مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن مافعله النبي ﷺ من طلب الدعاء من غيره هو من باب الاحسان إلى الناس الذى هو واجب أو مستحب ، وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الاحسان إلى الموتى الذى هو واجب أو مستحب ، فان الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة ، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا . ومن عبادته الاحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فانهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين موذين ظالمين لمن يسألونه وكانوا ظالمين لأنفسهم فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد . وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد ، فان الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي القُرْبَى) وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها . وقد روى عنه ﷺ أنه قال « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه الحاكم فى صحيحه وقد ثبت عنه فى الصحيح ﷺ أنه قال « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقال « اليد العليا هى المعطية واليد السفلى السائلة » وهذا ثابت عنه فى الصحيح . فاين الاحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه

والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الاشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه ؟ .

فالرسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها ، ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ، قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) وقال تعالى (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۞) وذكر الرحمن هو الذكر الذى أنزل الله على رسوله الذى قال فيه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) وقد قال تعالى (المص . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) وقد قال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ

عذابٌ شديد) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ٭ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

فالصراط المستقيم هو مابعث الله به رسوله محمداً ﷺ بفعل ماأمر ، وترك ماحظر ، وتصديقه فيما أخبر ، لا طريق إلى الله إلا ذلك . وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين ، وكل ماخالف ذلك فهو من طرق أهل الغى والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى (والنجم إذا هوى ٭ ماضل صاحبكم وما غوى ٭ وما ينطق عن الهوى ٭ إن هو إلا وحى يوحى) وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول فى صلاتنا (اهدنا الصراط المستقيم ٭ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن النبى ﷺ أنه قال « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » قال الترمذى حديث صحيح . وقال سفيان بن عيينه : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون . فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال فيهم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو [1] والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) فالاول من الغاوين والثانى من الضالين فان الغى الغى اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ٭ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل

---

(١) الغلو الزيادة فى الدين وإدخال ماليس منه فيه جهلا أو إفسادا .

الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقال تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ومن جمع الضلال والغي ففيه شبه من هؤلاء وهولاء . نسأل الله أن يهدينا وسائر إخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فصل

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ الوسالة والتوسل فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه ويعطى كل ذى حق حقه ، فيعرف ماورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه ، وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه فان كثيرا من اضطرب الناس في هذا الباب هو بسبب ماوقع من الإجمال واشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) وفي قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك[1] الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) فالوسيلة التي أمر

(١) الإشارة إلى (الذين زعمتم من دونه) في الآية السابقة المذكورة هنا ، ومعنى الآية هؤلاء الذين تزعمونهم آلهة وتدعونهم من دون الله من الأنبياء والملائكة والصالحين يبتغون إلى ربهم الوسيلة أى يطلبون مايقربهم إلى ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، فأولى بكم أن تبتغوا الوسيلة إلى ربكم بالإيمان به وبرسوله وبطاعته واجتناب معصيته كما يفعل الذين تزعمونهم آلهة لا أن تدعوهم من دون الله . والآيات من سورة « الإسراء » .

الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هى ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التى أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب وما ليس بواجب ولا مستحب لايدخل فى ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا . فالواجب والمستحب هو ماشرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ماجاء به الرسول لاوسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

والثانى لفظ الوسيلة فى الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم « سَلوا اللهَ لىَ الوَسيلَةَ فَإنَّهَا دَرَجَةٌ فى الجَنَّة لاتَنْبَغى إلاَّ لعَبْد منْ عبَاد الله وَأرْجُو أنْ أكُونَ أنَا ذَلكَ العَبْدُ ، فَمنْ سَألَ اللهَ لىَ الوَسيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْه شَفَاعَتى يَوْمَ القيَامَة » وقوله « مَنْ قَالَ حينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذه الدَّعْوَة التَّامَّة وَالصَّلاَة القَائمَة آت مُحَمَّداً الوَسيلَةَ وَالْفَضيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذى وَعَدْتَهُ إنَّكَ لاَتُخْلفُ الميعَادَ ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » فهذه الوسيلة للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة وأخبر أنها لاتكون إلا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبى صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء كما قال إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا .

وأما التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم والتوجه به فى كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به فى عرف كثير من المتأخرين يراد به الأقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقد فيه الصلاح .

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة ، فاما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته ، والثانى دعاؤه وشفاعته كما تقدم ، فهذان جائزان بإجماع المسلمين ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . أى بدعائه وشفاعته

وقوله تعالى (وَابتَغُوا إليْهِ الوسيلَة) أى القربة إليه بطاعته ، وطاعة رسوله طاعته قال تعالى (مَنْ يُطع الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ) فهذا التوسل الأول هو أصل الدين وهذا لا ينكره أحد من المسلمين . وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر فانه توسل بدعائه لا بذاته ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل فى حياته قد تعذر بموته ، بخلاف التوسل الذى هو الإيمان به والطاعة له فانه مشروع دائما .

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به (والثانى) التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان فى حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته ، و (الثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه لا فى حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شىء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى . وهذا هو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه إنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدورى فى كتابه الكبير فى الفقه المسمى بشرح الكرخى فى باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبى حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال : أبو حنيفة لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به [1] وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك . وهو قول أبى يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدورى : المسئلة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا . وهذا الذى قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسئل بمخلوق له معنيان : أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين

---

(١) الضمير فى به يعود على الله أى لا يجوز لأحد أن يطلب من الله شيئا ويتوسل إليه بغير ذاته ، ومثل ذلك التوسل بالعمل الصالح الذى يحبه الله ويأمر به ويرضى عن فاعله .

يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق فانه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى، وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والشمس وضحاها، والنازعات غرقا، والصافات صفا، فان إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته مايحسن معه إقسامه، بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد صححه الترمذى وغيره. وفى لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم، وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال « من كان حالفاً فليحلف بالله » وقال « لاتحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » وفى الصحيحين عنه أنه قال « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسى والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وأيمان السدق [1] (؟) وسراويل الفتوة وغير ذلك لاينعقد يمينه ولا كفارة فى الحلف بذلك.

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين فى مذهب الشافعى وأحمد وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك. وقيل هى مكروهة كراهة تنزيه، والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلىّ أن أحلف بغير الله صادقا. وذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك أعظم من الكذب. وإنما نعرف النزاع فى الحلف بالأنبياء، فعن أحمد فى الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان إحداهما لاينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعى. والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضى وأتباعه. وابن المنذر وافق هؤلاء. وقصر أكثر هؤلاء النزاع فى ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وعدى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء. وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نبيا قول ضعيف فى الغاية مخالف للأصول والنصوص، فالإقسام به على الله والسؤال به بمعنى الإقسام هو من هذا الجنس.

(١) يظهر أن هذه السين أصلها الصاد أى وأيمان الصدق والأيمان جمع يمين فحرفت إلى السين

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم - وبينهما (١) فرق - فان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بابرار القسم ، وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس بن النضر : أنكسر ثنية الربيع ؟ قال لا والذى بعثك بالحق لانكسر سنها . فقال : يا أنس كتاب الله القصاص فرضى القوم وعفوا فقال صلى الله عليه وسلم « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وقال « رُبَّ أشعثَ أغبرَ مدفوعٍ بالأبوابِ لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ » رواه مسلم وغيره ، وقال « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » وهذا فى الصحيحين وكذلك أنس ابن النضر (٢) والآخر من أفراد مسلم ، وقد روى فى قوله « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أنه قال « منهم البراء بن مالك » وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يابراء اقسم على ربك فيقسم على الله فتنهزم الكفار فلما كانوا على قنطرة بالسوس (٣) قالوا : يابراء اقسم على ربك فقال : يارب اقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتنى أول شهيد . فأبر الله قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ . وهذا هو أخو أنس بن مالك قتل مائة رجل مبارزة غير من

(١) باء السبب هى التى يكون ما بعدها سببا للاجابه ، وباء القسم هى التى يكون مجرد ذكر ما بعدها موجبا لحصول ما أقسم عليه فاذا لم يفعل وجبت الكفارة ومثال باء السبب أن يقول القائل اللهم بنبيك وملائكتك افعل كذا وكذا أى أسألك بسبب إرسال نبيك وخلق ملائكتك التى تتنزل على أنبيائك بالوحى وتصرف أمور الخلق بأمرك أن تعطينى كذا ، فهذا سؤال لا قسم ، هذا فى جانب الله ، وفى جانب الخلق اذا سئل بالمخلوق كأن يقول أحد الناس لمن يسأله بأبيك أو بحياتك أى بسبب حرمة أبيك عندك وبسبب نعمة الحياة عليك اقض لى هذه المسألة ، وقد بين المؤلف أن النبى ﷺ أمر بابرار القسم ، وأما باء القسم فمثالها أن يقول القائل بالله لأفعلن كذا فذكر لفظ الجلالة للتعظيم وتعلق الفعل على مجرد ذكر الاسم لانه لعظمته يقتضى مجرد ذكره الفعل ، وفى جانب الخلق كأن يقول القائل وحياة أبى لافعلن كذا أو ورأس أبى أو ورحمة أبى وقبر أبى لأفعلن كذا ، يريد تعليق الفعل على مجرد ذكر هذه الاسماء كما يعلقه على مجرد ذكر الله ، فهذا لا ينعقد ولا كفارة فى الحنث به وهو حرام أو مكروه على الخلاف والأرجح أنه حرام لأن فيه إشراك غير الله مع الله فى التعظيم والتبجيل . (٢) أى حديث أنس بن النضر (٣) اسم مدينة

(٤) قوله أن تمنحنا أكتافهم أى تهزمهم فيولوا الأدبار فتكون ظهورهم للمسلمين .

شرك فى دمه ، وحمل يوم مسيلمة [٤] على ترس ورمى به إلى الحديقة حتى فتح الباب .

والإقسام به على الغير ان يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فان حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء ، كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئا ولم يفعله فالكفارة على الحالف الحانث . وأما قوله سألتك بالله أن تفعل كذا فهذا سؤال وليس بقسم ، وفى الحديث (من سألكم بالله فأعطوه) ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم وقد يجيب الله دعاء الكفار فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم وإذا مسهم الضر فى البحر ضل من يدعون إلا إياه فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفورا

وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون . فالسؤال كقول السائل لله . أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقسام عليه فإن أفعاله هى مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ، وعفوه من مقتضى اسمه العفو ، ولهذا لما قالت عائشة للنبى ﷺ : إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال قولى « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادى ، وفى الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول : يادليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين . وجميع مايفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ، ولهذا يقال فى الدعاء : يارب يارب ، كما قال آدم (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال نوح (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ

---

(٤) هو مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم وألف بعض السجع يحاكى به القرآن ويدعى أنه ينزل عليه من السماء وقد حاربه المسلمون وهزموه والترس هو الدرع التى يحمى به المحارب صدره من الحراب والسيوف حمل عليه البراء وألقى فى حديقة المكان الذى احتمى فيه مسيلمة وفتح الباب فدخل المسلمون

مَا لَيس لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغفرْ لى وَتَرْحَمْنى أَكُنْ مِنَ الخَاسِرين) وقال إبراهيم (رَبَّنَا إنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ...) وكذلك سائر الأنبياء . وقد كره مالك وابن أبي عمران من أصحاب أبي حنيفة وغيرهما أن يقول الداعي يا سيدى وقالوا : قل كما قالت الأنبياء رب رب . واسمه الحي القيوم يجمع أصل معانى الأسماء والصفات كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع ولهذا كان النبي ﷺ يقوله إذا اجتهد فى الدعاء .

فإذا سئل المسئول بشيء والباء للسبب سئل بسبب يقتضى وجود المسئول فإذا قال : أسالك بان لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض كان كونه محموداً منانا بديع السموات والأرض يقتضى أن يمن على عبده السائل ، وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل مايحمد عليه ، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه : ولهذا أمر المصلى أن يقول (سمع الله لمن حمده) أى استجاب الله دعاء من حمده فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله ﷺ (أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعاء لايسمع) أى لايستجاب . ومنه قول الخليل فى آخر دعائه (إنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاء) ومنه قوله تعالى (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ[1]) وقوله (وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ) أى لم يأتك أولئك القوم ، ولهذا أمر المصلى أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه . وقال النبي ﷺ لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال « عجل[1] هذا » ثم دعاه فقال « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل

---

(١) تمام هذه الآية « لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » من سورة براءة ، وقد وردت فى المنافقين الذين لايحبون الخروج مع النبي ﷺ للحرب ويستأذنونه فى القعود وعدم النفر الى العدو ولاعذر لهم الا ما ينتحلونه من الأكاذيب والأضاليل فيقول الله لرسوله لاتحزن على عدم عدم خروجهم لأنهم لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا أى فسادا بتبغيض المؤمنين فى الحرب وإيقاع الفتنة بينهم وفيكم سماعون لهم أى مجيبون لقولهم عاملون بمقتضى فتنتهم

(١) قوله ﷺ عجل هذا أمر للمصلى الذى لم يحمد الله فى صلاته بان يتعجل حتى يفهمه

على النبي ﷺ وليدع بعد بما شاء ، أخرجه أبو داود والترمذى وصححه . وقال عبد الله بن مسعود : كنت أصلى والنبى ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسى فقال النبي ﷺ « سل تعطه » رواه الترمذى وحسنه ، فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم قال تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ[٢]) ثم قال (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ) على هذه الحال التى هم عليها لم يقبلوا الحق ثم (لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به .

وإذا قال السائل لغيره : أسألك بالله فانما سأله بإيمانه بالله وذلك سبب لاعطاء من سأله به فانه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق لاسيما إن كان المطلوب كف الظلم فانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم وأمره أعظم الأسباب فى حض الفاعل فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من أمر الله تعالى ، وقد جاء فى حديث رواه أحمد فى مسنده وابن ماجة عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ﷺ أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول فى دعائه « واسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فانى لم أخرج أشرا[٣] ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فان كان هذا صحيحا فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو حق أوجبه على نفسه لهم ، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذى جعله سببا لإجابة الدعاء كما فى قوله تعالى (وَيَسْتَجِيبُ[٤] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

الكيفية الصحيحة للصلاة ، وهذا منادى والتقدير « عجل ياهذا »

(٢) تمام هذه الآية « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله أن فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » من سورة « الأنفال » فقد وصف الله الكفار بأنهم شر الدواب وبأنهم صم بكم وأنه لو علم فيهم خيرا لأسمعهم أى لجعلهم يفهمون فالسماع هنا معناه الفهم ولو أفهمهم لتولوا وأعرضوا عن الحق بعد فهمه لأن طبيعتهم تألف الضلال وتأبى الهدى وتجادل فى الله بغير علم ، وتحب البقاء على ما كان عليه الآباء والأجداد . (٣) الأشر بوزن جمل البطر وهو كفران النعم وعدم الشكر عليها .

(٤) قبل هذه الآية قوله تعالى « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا » الآية أى يجيبهم إلى ما طلبوا لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات والآيتان من سورة « الشورى »

ويزيدهم من فضله) وكما يسئل بوعده لأن وعده يقتضى إنجاز ماوعده ومنه قول المؤمنين (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار) وقوله (إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى[1]) ويشبه هذا مناشدة النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث يقول « اللهم أنجز لى ماوعدتنى » وكذلك مافى التوراة أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ماوعد به إبراهيم فإنه سأله بسابق وعده لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا[2] إلى غار فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضى إجابة صاحبه : هذا سأل ببره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل بأمانته وإحسانه

---

(١) الآية من سورة « المؤمنون »

(٢) هذا إشارة إلى حديث ورد فى الصحيحين فى الموعظة عن جماعة ألجأهم المطر الى غار فناموا فلما أصبحوا وجدوا صخرة عظيمة قد سدت مدخل الغار ، فتشاوروا ماذا يفعلون فاهتدوا إلى أن يدعوا الله ويتوسلوا اليه بأعمالهم الصالحة حتى يزيح هذه الصخرة ، فأما أولهم فكان برا بوالديه حتى إنه فى ليلة حمل لهما عشاءهما فرجدهما قدناما فكره أن يوقظهما فوقف حاملا له طول الليل حتى أصبحا فأكلا ، وأما الثانى فكان يحب قريبة له فراودها عن نفسها فأبت ثم حدثت مجاعة فأتت إليه قابلة ماكان عرضه عليها سابقا لتأخذ منه بعض المال ، فلما تهيأت لقضاء مأربه ذكر الله فخشيه فأعطاها ما أرادت وترك حاجة نفسه مهابة من الله أن يستغل حاجتها فى وضيع شهوته ويضيع ثوابه عند الله برد لهفتها وإشباع جوعتها ، وأما الثالث فكان مدينا بدين ولم يجد صاحبه حتى يدفعه له فاشترى به غنما ورعاها وتعهدها حتى تناسلت وكثرت كثرة يطمع فيها مريد الدنيا ولكن أمانة هذا الرجل وحبه لله وايثاره له على الدنيا جعله يدفع هذه القطعان كلها الى صاحب الدين قائلا له خذ هذا فهو مالك . فقال كل منهم اللهم ان كنت فعلت كذا لوجهك فازل هذه الصخرة من طريقنا ، فلما دعا الأول انزاح جزء منها قليل لا يسمح بخروجهم ، ثم لما دعا الثانى انزاح جزء آخر ولكنهم لايستطيعون الخروج ، فلما دعا الثالث انزاحت جميعها فخرجوا يحمدون الله على نجاتهم بأعمالهم الصالحة .

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر « اللهم أمرتنى فأطعتك ودعوتنى فأجبتك وهذا سحر فاغفرلى ، ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول على الصفا : اللهم إنك قلت وقولك الحق (ادعونى أستجب لكم) وإنك لاتخلف الميعاد ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا .

وقد تبين أن قول القائل . أسألك بكذا نوعان فان الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب ، فقد تكون قسما به على الله وقد تكون سؤالا بسببه . فاما الأول فالقسم بالمخلوقات لايجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟ وأما الثانى وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع وقد تقدم عن أبى حنيفة وأصحابه أنه لايجوز ذلك فنقول : قول السائل لله تعالى : أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان ، يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقضى أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا ، مع أنه سبحانه قال (مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ويقتضى أيضا أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيدا ، ومن أطاع أمرهم الذى بلغوه عن الله كان سعيدا ، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضى إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك بل جاههم ينفعه أيضا إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضا إذا دعوا له وشفعوا فيه . فاما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ولا منه سبب يقتضى الإجابة لم يكن متشفعا بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله ، بل يكون قد سأل بأمر أجنبى عنه ليس سببا لنفعه : ولو قال الرجل لمطاع كبير : أسألك بطاعة فلان لك وبحبك له على طاعتك وبجاهه عندك الذى أوجبته طاعته لك . قد سأله [1] بأمر أجنبى لاتعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس فى ذلك مايوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم

---

(١) هذا جواب « ولو قال » والظاهر أنه سقط منه كلمة ، ولعل الاصل : « لكان قد سأله » الخ (ر) .

لشفاعتهم له ، فاذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبته له وطاعته له واتباعه له لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضى إجابة الدعاء بل هذا أعظم الأسباب والوسائل ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أن شفاعته فى الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك وهى مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما فى الصحيح أنه قال « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على فانه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لاتنبغى لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وفى الصحيح أن أبا هريرة قال له : أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال (من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه) فبين صلى الله عليه وسلم أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً وإخلاصا لأن التوحيد جماع الدين والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لايشفع عنده أحد إلا باذنه فاذا شفع محمد صلى الله عليه وسلم حد له ربه حدا فيدخلهم الجنة وذلك بحسب مايقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان وذكر صلى الله عليه وسلم أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان وبالدعاء الذى سن لنا أن ندعو له به .

وأما السؤال بحق فلان فهو مبنى على أصلين : أحدهما ماله من الحق عند الله ، والثانى هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة ؟ أما الأول فمن الناس من يقول للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل ، وقاس المخلوق على الخالق ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم ، ومن الناس من يقول : لاحق للمخلوق على الخالق بحال لكن يعلم مايفعله بحكم وعده وخبره ، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعرى وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة ، ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه حقا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه ، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته ، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم . كما قال فى الحديث الصحيح الإلهى « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » وقال تعالى (كَتَبَ

ربكم على نفسه الرحمة) وقال تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وفى الصحيحين عن معاذ عن النبى ﷺ أنه قال : « يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، يامعاذ ! أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم » فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره ، وعلى الثانى يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه .

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به - كما روى أن الله تعالى قال لداود وأى حق لآبائك على ؟ صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقا بعبادتهم . وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك فى نفسه . وتخيل مثل هذا فى حق الله تعالى من جهل الانسان وظلمه ، ولهذا بين سبحانه أن عمل الانسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما فى قوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) وقوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) وقوله تعالى (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) وقال تعالى فى قصة موسى عليه السلام (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ، وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) وقال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) وقد بين سبحانه أنه المان بالعمل فقال تعالى (يمنون عليك أن

أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) وفى الحديث الصحيح الالهى « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ[1] إذا دخل البحر » .

وبين الخالق والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة . (منها) : أن الرب تعالى غنى بنفسه عما سواه ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه ، والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية . (ومنها) أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذى يخلق ذلك وييسره فلم يحصل مايحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئه . وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو المنعم على عباده بالايمان بخلاف القدرية والمخلوق قد يحصل له مايحبه بفعل غيره ، (ومنها) أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة : إن الله لم يامر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يامر غيره بمايحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه . وهذا أيضا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون : إنه لم يامر العباد إلا بخير ينفعهم

---

(١) المخيط هو الإبرة التى يخاط بها ، فإذا وضعت الإبرة فى البحر ثم أخرجت منه هل تنقصه شيئا ؟ كلا ، فكذلك لا ينقص ماعند الله بإعطاء كل انسان ما يصيبه

ولم ينههم إلا عن شر يضرهم بخلاف المجبرة الذين يقولون إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم . (ومنها) أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك بما يحصل العلم والعمل الصالح ، وهو الهادى لعباده فلا حول ولا قوة إلا به . ولهذا قال أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وليس يقدر المخلوق على شىء من ذلك ، (ومنها) أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها فكيف والعبادة من نعمته أيضا ، (ومنها) أن العباد لايزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته فلن يدخل أحد الجنة بعمله وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ)وقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى (جَزَاءً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فإن المنفى نفى بباء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بباء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لايحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال كما ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وروى « بمغفرته » ، ومن هذا أيضا الحديث الذى فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم . ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذى أخبر الله بوقوعه فان الله صادق لايخلف الميعاد وهو الذى أوجبه على نفسة بحكمته وفضله ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده أو يسأله بالأسباب التى علق الله بها المشيئات [1] كالأعمال الصالحة فهذا مناسب . وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأله بجاه ذلك الشخص ،

(١) هذه اللفظة محرفة عن لفظة « المسببات » كما يدل على ذلك سياق الكلام وقد وردت قبل ذلك مصححة .

وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه ، وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : لا يسأل بحق الأنبياء فانه لا حق للمخلوق على الخالق ممنوع . فانه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم إيراده ، وقال تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ * وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

فيقال للمنازع : الكلام في هذا في مقامين : أحدهما في حق العباد على الله ، والثاني في سؤاله بذلك الحق ، أما الأول فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بان يجيبهم وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد قال الله تعالى (وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً * وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا . هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال كما تقدم - قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك ، وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده ، وقيل : هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه على نفسه كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر كما تقدم . والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع فقيل : هو الممتنع [1] وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلما لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير وإما مخالفة الأمر الذي يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه ، وقيل : بل ما كان ظلما من العباد فهو ظلم منه ، وقيل : الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) قال المفسرون : هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن يهضم من حسناته . وقال تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) . (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) [2] .

---

(١) أي المحال الذي لا تتعلق به قدرته تعالى (ر)

(٢) تمام هذه الآية (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت آلهتهم التي يدعون

وأما المقام الثانى فانه يقال : مابين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق لكن الكلام فى السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذى سأل به سببا لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذى يجب لعابديه وسائليه ، وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لايعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه - فليس فى استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله مايكون سببا لمطلوب هذا السائل ، فان ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لايستحق ما استحقه ذلك ، فليس فى إكرام الله لذلك سبب يقتضى إجابة[٣] هذا . وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه ، فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له ، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب . وإن قال : السبب هو محبتى له وإيمانى به وموالاتى له ، فهذا سبب شرعى وهو سؤال لله وتوسل اليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ووسوله وطاعته لله ورسوله لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله . فمن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فقد جعله نداً لله وهذه المحبة تضره ولاتنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب اليه مما سواه وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من أعظم الأمور .

فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين : تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته - وهذا أعظم الوسائل - وتارة يتوسل بذلك فى الدعاء كما ذكرتم نظائره ، فيحمل قول القائل : أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد : إنى أسألك

من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) وهى من سورة هود وسيقت لبيان أن الله لما أخذ القرى الظالمة لم يظلم أهلها وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان به وتكذيب رسله ، وصنيع المؤلف فى الاصل يشعر بأنها فى الترتيب بعد قوله تعالى (إن الله لايظلم الناس شيئا) التى سبقتها ولكن هذه هى الاخيرة فى كلامنا والسابقة فى كلامه من « سورة النساء » .

(٣) يريد الشيخ ابن تيمية ، أن من استحق من العباد ثوابا على عمله إنما ينفعه هو فقط ولا ينفع غيره إذا سأل لغير الله بسببه لأن الله يجزى كل نفس ما كسبت إلا أن يكون صاحب العمل الصالح قد دعا لغيره أو شفع له .

بإيمانى به وبمحبته ، وأتوسل إليك بإيمانى به ومحبته ، ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب فى ذلك بلا نزاع وإذا حمل على هذا المعنى لكلام من توسل بالنبى ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا . وحينئذ فلا يكون فى المسئلة نزاع ، ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر ، وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس فى زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فان قيل : فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم ، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقا لذى الرحم كما قال الله تعالى (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) وقال النبى ﷺ « الرحم شجنة [1] من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله » وقال « لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوى [2] الرحمن وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت » وقال ﷺ « يقول الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتتته [3] » وقد روى عن على أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه أعطاه لحق جعفر على على . وحق ذى الرحم باق بعد موته كما فى الحديث أن رجلا قال : يارسول الله ! هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال « نعم ! الدعاء لهما والاستغفار لهما ، وانفاذ وعدهما من بعدهما ، وصلة رحمك التى لا رحم لك إلا من قبلهما » وفى الحديث الآخر حديث ابن عمر « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى [4] » فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

---

(١) الشجنة بتثليث الشين الشعبة من كل شىء ، أى أن الرحم شعبة من الرحمن كأنها حزء منه أى من اسمه ، يدل على ذلك الحديث الآخر أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى (٢) الحقوان تثنية حقو وهو الخاصرة أى ما لان من الجنب .

(٣) بتتته أى قطعته . (٤) يولى أى يموت

والذى قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء من أنه لايجوز أن يسال الله تعالى بمخلوق لابحق الأنبياء ولا غير ذلك يتضمن شيئين كما تقدم : أحدهما الإقسام على الله سبحانه وتعالى به ، وهذا منهى عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما ينهى طائفة من الناس ، ونقل فى ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود فى دعاء كثير من الناس . لكن ماروى عن النبي ﷺ فى ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة إلا حديث الأعمى الذى علمه أن يقول : أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة .

وحديث الأعمى لاحجة لهم فيه فإنه صريح فى أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلب من النبى ﷺ الدعاء ، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول : « اللهم شفّعه فىّ » ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ ، وكان ذلك مما يعد من آيات[1] النبي ﷺ . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله .

ودعا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا » يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ، إذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس ، وساغ النزاع فى السؤال بالأنبياء والصالحين دون الإقسام بهم لان بين السؤال والاقسام فرقا ، فان السائل متضرع ذليل يسال بسبب يناسب الإجابة ، والمقسم أعلى من هذا فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لايقسم إلا على من يرى أنه يبر قسمه فابرار القسم خاص ببعض العباد ، وأما إجابة السائلين فعامة ، فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً ، وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « مامن داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا : يارسول اذاً نكثر . قال « الله أكثر »[2] .

---

(١) أى من معجزاته وعلامات نبوته ورسالته . (٢) أى الله أكثر اجابة لدعائكم

وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم — وهو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم إنه لايجوز — ليس فى المعروف من مذهب مالك مايناقض ذلك فضلا أن يجعل هذا من مسائل السب ، فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوز التوسل به بمعنى الاقسام به أو السؤال به فليس معه فى ذلك نقل عن مالك وأصحابه فضلا عن أن يقول مالك : إن هذا سب للرسول ، أو يتنقص به . بل المعروف عن مالك أنه كره للداعى أن يقول : ياسيدى ، وقال : قل كما قالت الأنبياء : يارب يارب يا كريم . وكره أيضا أن يقول : ياحنان يامنان . فانه ليس بمأثور عنه ، فاذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذا لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبيا كان أو غيره وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق لانبى ولا غيره ؟ بل قال عمر : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وكذلك ثبت فى الصحيح عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا اذا أجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم واستسقائه ، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان فى حياته ﷺ سأل الله تعالى بمخلوق لابه ولا بغيره لافى الاستسقاء ولا غيره ، وحديث الأعمى سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى ، فلو كان السؤال به معروفا عند الصحابة لقالوا لعمر : ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس فلم نعدل عن الأمر المشروع الذى كنا نفعله فى حياته وهو التوسل بأفضل الخلق الى أن نتوسل ببعض أقاربه ؟ وفى ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ، ونحن مضطرون غاية الاضطرار فى عام الرمادة الذى يضرب به المثل فى الجدب ، والذى فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشى كما توسل عمر بالعباس .

وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرهم : أنه يتوسل فى الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا وان كان من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل اقتداء بعمر . ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى فى ذلك لا بنبى ولا بغير نبى

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين ـ غير مالك ـ كالشافعى وأحمد وغيرهما فقد

كذب عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند الى حكاية مكذوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذى فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، وأصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى ، والقاضى عياض لم يذكرها فى كتابه فى باب زيارة قبره بل ذكر هناك ماهو المعروف عن مالك وأصحابه ، وإنما ذكرها فى سياق أن حرمة النبى ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته ، وذكر(١) عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه . وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختيانى فقال . ماحدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه - قال - وحج حجتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبى ﷺ بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت منه مارأيت واجلاله للنبى ﷺ كتبت عنه ، وقال مصعب بن عبدالله : كان مالك إذا ذكر النبى ﷺ يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقيل له يوما فى ذلك فقال : لو رأيتم مارأيت لما أنكرتم علىّ ماترون - لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لانكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكى حتى نرحمه ، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعابة والتبسم - فاذا ذكر عنده النبى ﷺ اصفر لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا ، وإما صامتا ، وإما يقرأ القرآن ، ولا يتكلم فيما لايعنيه ، وكان من العلماء العباد الذين يخشون الله ، ولقد كان عبدالرحمن بن القاسم يذكر النبى ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه فى فمه هيبة لرسول الله ﷺ ، ولقد كنت آتى عامر بن عبدالله بن الزبير فاذا ذكر عنده النبى ﷺ بكى حتى لايبقى فى عينيه دموع ، ولقد رأيت الزهرى - وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم - فاذا ذكر عنده النبى ﷺ فكأنه ماعرفك ولا عرفته ، ولقد كنت آتى صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين فاذا ذكر النبى ﷺ بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه .

وهذا كله نقله القاضى عياض من كتب أصحاب مالك المعروفه ثم ذكر الحكاية باسناد غير منقطع رواها عن غير واحد إجازة ، قالوا . حدثنا أبو العباس أحمد بن

(١) كذلك فى الاصل والظاهر انه تحريف وان الصواب ، وذلك عند ذكره ، الخ

عمر بن دلهاث قال حدثنا أبو الحسن على بن فهر - ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب - ثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل - ثنا ابن حميد قال . ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك يا أمير المؤمنين ! لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله أدب قوما فقال (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)(١) الآية ، ومدح قوما فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ)(٢) الآية ، وذم قوما فقال (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ)(٣) الآية ، وإن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر فقال يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعو ؟ أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله(٤) ، قال الله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً) .

قلت وهذه الحكاية منقطعة فان محمد بن حميد الرازى لم يدرك مالكا لا سيما فى زمن أبي جعفر المنصور ، فان أبا جعفر توفى بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة وتوفى مالك سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفى محمد بن حميد الرازى سنة ثمان وأربعين ومائتين ولم يخرج من بلده حين رحل فى طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذبه أبو زرعة وابن وارة ، وقال صالح ابن محمد الأسدى : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه وأحذق بالكذب منه . وقال يعقوب ابن شيبة (كثير المناكير)(٥) . وقال النسائى ليس بثقة . وقال ابن حبان ينفرد عن الثقات بالمقلوبات . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفى سنة

---

(١) تمام هذه الآية (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)

(٢) تمام هذه الآية (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) (٣) تمام هذه الآية (أكثرهم لا يعقلون) والآيات الثلاث من سورة الحجرات (٤) يشفعك أى يصلك ويقربك من شفعه إذا وصله .

(٥) أى محمد بن حميد الرازى كثير المناكير أى الأحاديث المنكرة

اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الاطلاق هو أبو حذيفة أحمد ابن إسماعيل السهمى توفى سنة تسع وخمسين ومائتين وفى الاسناد أيضا من لا تعرف حاله

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ، ومحمد ابن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند[٦] ، فكيف إذا أرسل[٧] حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟ هذا إن ثبتت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له فى مسألة فى الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ومروان بن محمد الطاطرى ضعفوا رواية هؤلاء ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث ؟

مع أن قوله : وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة ، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة وهذا حق كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتى الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم فيردهم آدم إلى نوح ثم يردهم نوح إلى ابراهيم وابراهيم إلى موسى وموسى إلى عيسى ويردهم عيسى إلى محمد ﷺ فانه كما قال « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر» ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه - أحدها قوله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله وأدعو ؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . فان المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعى إذا سلم على النبى ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة ويدعو فى مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبى ﷺ والدعاء له - هذا قول أكثر العلماء كمالك فى إحدى الروايتين والشافعى وأحمد وغيرهم ، وعند أصحاب أبى حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضا ، ثم منهم من قال يجعل الحجرة على يساره - وقد رواه ابن وهب عن مالك - ويسلم عليه ، ومنهم من قال بل يستدبر

---

(١) إذا أسند أى إذا روى مع ذكر السند بقوله عن فلان عن فلان إلى أن يصل إلى الرسول ﷺ (٢) أرسل أى روى بدون إسناد

الحجرة ويسلم عليه وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر . لذلك قال القاضى عياض فى المبسوط عن مالك قال « لا أرى أن يقف عند قبر النبى ﷺ يدعو ولكن يسلم ويمضى » قال وقال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء إلى القبر فيقول السلام على النبى ﷺ ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى . ثم ينصرف . ورئى واضعا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه ، قال وعن ابن أبى قسيط والقعنبى كان أصحاب النبى ﷺ إذا خلا المسجد جلسوا برمانة المنبر التى تلى القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون قال وفى الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثى أنه كان - يعنى ابن عمر - يقف على قبر النبى ﷺ وعلى أبى بكر وعمر ، قال مالك فى رواية بن وهب : يقول السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، وقال فى المبسوط : ويسلم على أبى بكر وعمر . قال أبو الوليد الباجى : وعندى أن يدعو للنبى ﷺ بلفظ الصلاة ولأبى بكر وعمر لما فى حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور فى رواية ابن وهب ، قال مالك فى رواية ابن وهب : إذا سلم على النبى ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره ، وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب فى الواضحة وغيره قال : وقال مالك فى المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبى ﷺ فيصلى عليه ويدعو له ولأبى بكر وعمر قيل له : فان ناساً[1] من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك فى اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا فى الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال مالك لم يبلغنى هذا عن أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع[2] ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده ، قال ابن القاسم :

---

(١) الاصل « فان ناس » وهو خطأ ظاهر (ر) (٢) واسع أى يسعنا تركه كما وسع الصحابة رضى الله عنهم تركه

ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا أتوا القبر فسلموا قال ولذلك رأى[١].

قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم قال وقال رسول الله ﷺ « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » ، « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال وقال النبى ﷺ « لا تجعلوا قبرى عيدا »[٢] قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلا ، وفى العتبية يعنى عن مالك يبدأ بالركوع[٣] قبل السلام فى مسجد النبى ﷺ وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبى ﷺ حيث العمود المخلق ، وأما فى الفريضة فالتقدم إلى الصفوف قال والتنفل فيه للغرباء أحب إلى من التنفل فى البيوت .

فهذا قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يقصدون[٤] القبر إلا للسلام على النبى ﷺ والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له فانه تحية للنبى ﷺ ، فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فانما يدعو فى مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبى ﷺ ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبى ﷺ فكيف بدعائه لنفسه ؟

وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون ، وكذلك السؤال به ، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته ؟ فدل ذلك على أن ما فى الحكاية المنقطعة من قوله « استقبله واستشفع به » كذب على مالك

---

(١) يظهر انه قد سقط من هذا الموضع كلام فلهذا تركناله بياضا (ر) (٢) أى لاتحتفلوا بزيارة قبرى كما تحتفلون بالأعياد فيكثر الاجتماع والتهريج وغير ذلك من الأعمال التى قد تسبب عدم الاخلاص فى الزيارة وتبعد بالزيارة عن الغرض المقصود وتدخل فى النفوس بعض الشرك . (٣) يعنى بالركوع للصلاة كتحية المسجد .

(٤) الظاهر أن أصل العبارة « لم يكونوا يقصدون القبر » الخ وإلا لقال « يقصدوا » بحذف النون ، أو أصل العبارة لايقصدون فأبدل الناقل لا بلم . (اهـ ر)

مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التى يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء إذ كان منهم من لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلا عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له يا رسول الله اشفع لى أو ادع لى ، أو يشتكى إليه المصائب الدين والدنيا[١] أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له ، أو يشتكى إليهم المصائب فان هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة ، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين ، وإن كانوا يسلمون عليه إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبلغ[٢] سلام البعيد .

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذى رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة ابن شريح المصرى ، حدثنا أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « مامن أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » ، وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة فى السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه ، فان أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شىء منها فى الدين . ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئا منها ، وإنما يرويها من يروى الضعاف كالدار قطنى والبزار وغيرهما . وأجود حديث فيها مارواه عبدالله بن عمر العمرى وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه ، مثل قوله « من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى » فان هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين ، فان من زاره فى حياته وكان مؤمنا به كان من أصحابه لاسيما إن كان من المهاجرين اليه المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه[٣] » .

---

(١) أى فى الدين والدنيا فسقط لفظ فى أو الأصل مصائب بالتنكير ر .

(٢) ويبلغ سلام البعيد أى تبلغه الملائكة إياه كما سيأتى للمؤلف .

(٣) المد بالوزن رطل وثلث وبالكيل ثلث الصاع والصاع مكيال كان أيام الرسول ﷺ يعادل ربع الكيلة الموجودة الآن والنصيف بوزن رغيف نصف المد ، يقول الرسول ﷺ : « لا تسبوا أصحابى » فان سبقهم إلى الإيمان جعل جزاءهم أضعافا مضاعفة ، فلو أنفق غير الصحابى مثل جبل أحد ذهبا فى سبيل الله وأنفق الصحابى مدا فى سبيل الله أو نصف مد كان

اخرجاه فى الصحيحين . والواحد من بعد الصحابة لايكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه ، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين ، بل ولا شرع السفر اليه ، بل هو منهى عنه . وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب ، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب ؛ فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا اليه فى حياته فكيف بالسفر المنهى عنه ؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفى بنذره ، بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر إلى مسجده والمسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعى ، أظهرهما عنه يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد . والثانى لايجب وهو مذهب أبى حنيفة ، لأن من أصله أنه لايجب من النذر إلا ماكان واجبا بالشرع [1] وإتيان هذين المسجدين ليس واجبا بالشرع فلا يجب بالنذر عنده وأما الأكثرون فيقولون هو طاعة لله ، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن النبى ﷺ أنه قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه ؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ . واستعظمه . وقد قيل إن ذلك كراهية زيارة القبور ، وقيل لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك . والصحيح أن ذلك لأن لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التى هى من جنس الشرك ، فان زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره : زيارة شرعية وزيارة بدعية ، فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء

مد الصحابى أو نصفه أفضل من مثل جبل أحد ذهبا من غير الصحابى .

(١) دليل الأصل « ما كان جنسه واجبا بالشرع فهو المذهب ولا معنى لايجاب الواجب (اهـ ر) فيكون وجوبه بالنذر غير وجوبه بالشرع فلا يجتمع إيجابان على موجب واحد » فلو نذر أن يحج كان عليه حج غير حج الإسلام الواجب ولو نذر أن يصلى كان عليه صلاة غير الصلاة الواجبة ، وهكذا .

لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة فهذه الزيارة الشرعية . والثانى أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم ، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء فى المساجد والبيوت ، أو أن الاقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضى إجابة الدعاء ، فمثل هذه الزيارة بدعة منهى عنها . فاذا كان لفظ الزيارة مجملا يحتمل حقا وباطلا عدل عنه إلى لفظ لالبس فيه كلفظ السلام عليه ، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى فى زيارة قبره أو زيارته بعد موته ، فان هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ، لايحتج بشىء منها فى أحكام الشريعة .

والثابت عنه ﷺ أنه قال « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » هذا هو الثابت فى الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال « قبرى » وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة ، إنما تنازعوا فى موضع دفنه ولوكان هذا عندهم لكان نصا فى محل النزاع ، ولكن دفن فى حجرة عائشة فى الموضع الذى مات فيه ، بأبى[1] هو وأمى صلوات الله عليه وسلامه ، ثم لما وسع المسجد فى خلافة الوليد بن عبدالملك وكان نائبه على المدينة عمر بن عبدالعزيز أمره أن يشترى الحجر[2] ويزيدها فى المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت فى المسجد ودخلت حجرة عائشة فى المسجد من حينئذ ، وبنوا الحائط البرانى مسنما محرفا ، فانه ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى مرثد الغنوى أنه قال ﷺ « لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » لأن ذلك يشبه السجود لها وإن كان المصلى إنما يقصد الصلاة لله تعالى ، كما نهى عن اتخاذها مساجد[3] نهى عن قصد الصلاة عندها ، وإن كان المصلى إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له . فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذى سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع حسبما تقدم .

وقد روى سفيان الثورى عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن

---

(١) أى أفديه بأبى وأمى وهذا من كلام الامام أحمد بن تيمية .

(٢) أى حجر نسائه ﷺ التى كانت بجوار المسجد (٣) لعل أصله « ونهى » (ر)

مسعود قال قال رسول الله ﷺ « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن عن أمتى السلام » رواه النسائى وأبو حاتم فى صحيحه وروى نحوه عن أبى هريرة . فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة . وفى الحديث المشهور الذى رواه أبو الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس قال قال رسول الله ﷺ « أكثروا على من الصلاة فى كل يوم جمعة فان صلاة أمتى تعرض على يومئذ فمن كان أكثرهم على صلاة كان أقربهم منى منزلة » وفى مسند الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لا تتخذوا قبرى عيدا ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » ورواه أبو داود . قال القاضى عياض : وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من صلى على عند قبرى سمعته . ومن صلى على نائيا[1] أبلغته » . وهذا قد رواه محمد بن مروان السدى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى صالح عن أبى هريرة . وهذا هو السدى الصغير وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبى بكر الحنفى : حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، سمعت الحسن بن على قال : قال رسول الله ﷺ « صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ولا تتخذوا بيتى عيدا وصلوا على وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغنى » وروى سعيد بن منصور فى سننه أن عبد الله بن حسين بن حسن بن على بن أبى طالب رأى رجلا يكثر الاختلاف إلى قبر النبى ﷺ قال له : ياهذا ! إن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبرى عيدا وصلوا لى حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . وروى هذا المعنى عن على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن على بن أبى طالب ، ذكره أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ فى مختاره الذى هو أصح من صحيح الحاكم . وذكر القاضى عياض عن الحسن بن على قال : إذا دخلت فسلم على النبى ﷺ فان رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا بيتى عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا على حيث كنتم فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » .

---

(١) نائيا أى بعيدا .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته . وهذا حق كما تواترت به الأحاديث ، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته فى حياته ، فإنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته ، فنظير هذا لو كانت الحكاية صحيحة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فى الدنيا عند قبره ، ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا سنه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة ، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذى لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها الشرعية مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته ، وتمام رغبته فى اتباع السنة وذم البدع وأهلها ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا لعلم أنه لا يقول مثل هذا .

ثم قال فى الحكاية « استقبله واستشفع به فيشفعك الله » والاستشفاع به معناه فى اللغة أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة ، وكما كان أصحابه يستشفعون به . ومنه الحديث الذى فى السنن أن أعرابيا قال : يارسول الله ! جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا فانا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله . فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال « ويحك أتدرى ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : نستشفع بالله عليك ومعلوم أنه لا ينكر أن يسئل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعا إلى المخلوق ، ولهذا لم ينكر قوله نستشفع بك على الله فانه هو الشافع المشفع .

وهم — لو كانت الحكاية صحيحة — إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته ﷺ ولهذا قال فى تمام الحكاية (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ) الآية ، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته ، فاذا أجابهم فانه يستغفر لهم ، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم ، وإذا كان الاستشفاع منه

طلب شفاعته فانما يقال فى ذلك «استشفع به فيشفعه الله فيك» لا يقال : فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ولغة النبى ﷺ وأصحابه وسائر العلماء ، يقال : شفع فلان فى فلان فشفع فيه . فالمشفع الذى يشفعه المشفوع اليه هو الشفيع المستشفع به ، لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له ، فان هذا ليس هو الذى شفع ، فحمد ﷺ هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذى يستشفع به . ولهذا يقول فى دعائه : يارب شفعنى ، فيشفعه الله ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبى شفاعته ، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضا فان طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن النبى أنه رأى أعرابيا أتى قبره وقرأ هذه الآية وأنه رأى فى المنام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين الذين يفتى الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلا شرعيا . ومعلوم أنه لوكان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم ، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) قال ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . فمثل هذا الإمام كيف يشرع دينا لم ينقل عن أحد السلف ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار بعد موت الأنبياء والصالحين منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولكن هذا اللفظ الذى فى الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة فى معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أى نتوسل به . ويقولون لمن توسل فى دعائه بنبى أو غيره «قد تشفع به» من غير أن يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له ، بل وقد يكون غائبا لم يسمع كلامه ولا شفع له ، وهذا ليس هو لغة النبى ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة ، بل ولا هو لغة العرب ، فان الاستشفاع طلب الشفاعة . والشافع هو الذى يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسئول المدعو المشفوع إليه . وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل

ولا طلب له حاجة بل وقد يعلم بسؤاله ، فليس هذا استشفاعا لا فى اللغة ولا فى كلام من يدرى مايقول . نعم هذا سؤال به ودعاؤه ليس ليس هو استشفاعا به . ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة كما غيروا الشريعة وسموا هذا استشفاعا أى سؤالا بالشافع صاروا يقولون : استشفع به فيشفعك ، أى يجيب سؤالك به ، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة ، وأين لفظها من لفظ مالك ؟ .

نعم قد يكون أصلها صحيحا ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت فى مسجد الرسول اتباعاً للسنة كما كان عمر ينهى عن رفع الصوت فى مسجده ، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيزه وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به . ومن لم يعرف لغة الصحابة التى كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبى ﷺ وعادتهم فى الكلام وإلا[1] حرف الكلم عن مواضعه ، فان كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم فى الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ فى كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم ، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معانى أخر مخالفة لمعانيهم ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها مايعنونه هم ويقولون : إنا موافقون للأنبياء وهذا موجود فى كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والاسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة[2] والمتصوفة ، مثل من وضع المحدث والمخلوق والمصنوع على ماهو معلول وإن كان قديما أزليا ، ويسمى ذلك « الحدوث الذاتى » ثم يقول : نحن نقول إن العالم محدث . وهو مراده ، ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم وإنما المحدث عندهم ماكان بعد أن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ الملائكة على مايثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس ،

---

(١) يظهر أن لفظة « وإلا » زائدة ويكون نظم الكلام هكذا ، ومن لم يعرف لغة الصحابة الخ حرف الكلام عن مواضعه فتكون جملة حرف خبر المبتدأ الذى هو من

(٢) المتكلمة علماء الكلام أى علم التوحيد الاصطلاحى فإنه يسمى علم الكلام

ولفظ الجن والشياطين على بعض قوى النفس ، ثم يقولون . نحن نثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين . ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك ، مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلا وأبدا ، وأنه مبدع لكل ما سواه ، أو بتوسطه حصل كل ما سواه . والعقل الفعال عندهم يصدر كل ما تحت فلك القمر ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله . ولا رب كل ما تحت فلك القمر ، ولا من هو قديم أزلى أبدى لم يزل ولا يزال ، ويعلم أن الحديث الذى يروى « أول ماخلق الله العقل » حديث باطل عن النبى ﷺ ، مع أنه لو كان حقا لكان حجة عليهم فان لفظه (أول ماخلق الله العقل) بنصب[1] الأول على الظرفية (فقال له أقبل فأقبل ثم قال : أدبر فأدبر ، فقال وعزتى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، فبك آخذ وبك أعطى وبك الثواب وبك العقاب) وروى (لما خلق الله العقل) فالحديث لو كان ثابتا كان معناه أنه خاطب العقل فى أول أوقات خلقه ، وأنه خلق قبله غيره ، وأنه يحصل به هذه الأمور الأربعة لا كل المصنوعات . والعقل فى لغة المسلمين مصدر : عقل يعقل عقلا . يراد به القوة التى بها يعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك لا يراد بها قط فى اللغة جوهر قائم بنفسه فلا يمكن أن يراد هـذا المعنى بلفظ العقل ، مع أنا قد بينا فى مواضع أخر فساد ماذكروه من جهة العقل الصريح ، وأن ماذكروه من المجردات والمفارقات ينتهى أمرهم فيه إلى إثبات النفس التى تفارق البدن ، وإلى إثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها ، فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق فى هذا الباب .

والمقصود هنا أن كثيراً من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما يوجد فى كلام صاحب الكتب المضنون بها وغيره ، مثل ما ذكره فى اللوح المحفوظ حيث جعله النفس الفلكية ، ولفظ القلم حيث جعله العقل الأول ، ولفظ الملكوت والجبروت والملك حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ، ولفظ الشفاعة حيث جعل ذلك فيضا يفيض من الشفيع على المستشفع وإن

---

(١) فيكون الأول ظرف زمان أى فى وقت أول خلق العقل خاطبه

كان الشفيع قد لا يدرى ، وسلك فى هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول ﷺ فانه فى لغة الرسول التى جاء بها القرآن خلاف الحديث وإن كان مسبوقا بغيره كقوله تعالى (حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)[١] وقال تعالى عن إخوة يوسف (تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)[٢] وقوله تعالى (أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ)[٣] وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل . أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقا بعدم نفسه ويجعلونه إذا أريد به هذا من باب المجاز ، ولفظ المحدث فى لغة القرآن تقابل لفظ القديم فى القرآن الحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به الجملة التامة كقوله ﷺ « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد « ألا كل شيء ماخلا الله باطل »[٤] ومنه قوله تعالى (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[١] وقوله تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ[٢] بَيْنَنَا

---

(١) تمام هذه الآية : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » من سورة يس - والعرجون الشمراخ من سباطة البلح إذا تقادم عليه الزمن يدق ويتقوس فيكون القمر فى آخر منازله صغيرا متقوسا كالعرجون القديم (٢) أى قال إخوة يوسف لأبيهم لما قال لهم إنى لأجد ريح يوسف هذه الجملة « تالله إنك لفى ضلالك القديم » (٣) أى قال إبراهيم لقومه هذه الآية « أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا إلا رب العالمين » من سورة الشعراء (٤) تمام هذا البيت * وكل نعيم لا محالة زائل * وقد أطلق الرسول ﷺ على البيت كله كلمة

(١) الكلمة التى كبرت هى قول المشركين واليهود والنصارى الذين قالوا اتخذ الله ولدا فقال المشركون الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقبل هذه الآية « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة) الآية من سورة الكهف (٦) هذه الكلمة مذكورة فى تمام الآية وهى (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا

وَبَيْنَكُمْ) الآية وقوله تعالى (وَجَعَلَ كَلِمَةَ(٣) الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا) وأمثال ذلك . ولا يوجد لفظ الكلام فى لغة العرب إلا بهذا المعنى . والنحاة اصطلحوا على أن يسموا الاسم وحده والفعل والحرف كلمة ، ثم يقول بعضهم . وقد يراد بالكلمة الكلام . فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب وكذلك لفظ ذوى الأرحام فى الكتاب والسنة يراد به الاقارب من جهة الابوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض وإن شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ، ثم صار ذلك فى اصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ فى كلام الله ورسوله وكلام الصحابة . ونظائر هذا كثيرة .

ولفظ التوسل والاستشفاع ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم فى دينهم ولغتهم ، والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقوق ، والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالته كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية .

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلى على النبى ونسلم عليه فى كل مكان . فهذا مما اتفق عليه المسلمون . وكذلك رغبنا وحضنا فى الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه مقاما محمودا الذى وعده . فهذه الوسيلة التى شرع لنا أن نسألها الله تعالى - كما شرع لنا أن نصلى عليه ونسلم عليه - هى حق ، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ . والوسيلة التى أمرنا الله أن نبتغيها إليه هى التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله . وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبى ﷺ بالإيمان به وطاعته . وهذا التوسل به فرض على كل أحد ، وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته فى الاستسقاء وغيره مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته - فهذا نوع ثالث هو من باب قبول

بأننا مسلمون » من سورة آل عمران (٣) كلمة الذين كفروا هى دعوة الشرك من مثل ما سبق من جعلهم لله ولدا واتخاذهم من دونه أندادا يدعونهم مع الله أو من دون الله ، وكلمة الله هى كلمة الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) والآية من سورة التوبة

الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه ، فمن شفع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يدع ولم يشفع به ، ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، فظن هذا مشروعا مطلقا لكل أحد فى حياته ومماته ، وظنوا أن هذا مشروع فى حق الأنبياء والملائكة بل وفى الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح وإن لم يكن صالحا فى نفس الأمر . وليس فى الأحاديث المرفوعة فى ذلك حديث فى شىء من دواوين المسلمين التى يعتمد عليها فى الأحاديث ـ لا فى الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره ، وإنما يوجد فى الكتب التى عرف أن فيها كثيرا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التى يختلقها الكذابون ، بخلاف من قد يغلط فى الحديث ولا يعتمد الكذب ، فان هؤلاء توجد الرواية عنهم فى السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه بخلاف من يتعمد الكذب فان أحمد لم يرو فى مسنده عن أحد من هؤلاء . ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمدانى والشيخ أبو الفرج ابن الجوزى : هل فى المسند حديث موضوع ؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون فى المسند حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة . ولا منافاة بين القولين فان الموضوع فى اصطلاح أبى الفرج هو الذى قام دليل على أنه باطل وإن كان المحدث به لم يتعمد الكذب بل غلط فيه ولهذا روى فى كتابه فى الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء فى كثير مما ذكره وقالوا إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك لكن الغالب على ما ذكروه فى الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء . وأما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فانما يريدون بالموضوع المختلق المصنوع الذى تعمد صاحبه الكذب والكذب كان قليلا فى السلف .

أما الصحابة فلم يعرف فيهم ـ ولله الحمد ـ من تعمد الكذب على النبى ﷺ كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة[1] ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق ، ولا كان فيهم من قال إنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بين هذا فى غير هذا الموضع ، والخضر الذى يأتى

(١) قد عرفت بهذه الفرق فى التعليق على كتابى لمعة الاعتقاد الهادى إلى سبيل الرشاد لابن قدامة وتجريد التوحيد المفيد للامام المقريزى وهما فى متناول القارىء يرجع إليهما إذا شاء .

كثيراً من الناس إنما هو جنى تصور بصورة إنسى أو إنسى كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكا مع قوله أنا الخضر ، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجنى والإنسى . وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنيا[١] ممن يطول ذكره فى هذا الموضع - وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس[٢]، وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف بها كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن أن هذا من باب الكرامات كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب فى التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة ، بخلاف الشيعة فان الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء فى طوائف . وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس بل فى الصحابة من قد يغلط أحيانا وفيمن بعدهم ، ولهذا كان فيما صنف فى الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق . فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين أنه رواها لتعرف بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب . ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبى داود والترمذى مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو داود يروى فى سننه منها ، فشرط أحمد فى مسنده أجود من شرط أبى داود فى سننه .

والمقصود أن هذه الاحاديث التى تروى فى ذلك من جنس أمثالها من الاحاديث الغريبة المنكرة بل الموضوعة التى يرويها من يجمع فى الفضائل والمناقب الغث والسمين كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف فى فضائل الاوقات وفضائل العبادات وفضائل الانبياء والصحابة وفضائل البقاع ونحو ذلك ، فان هذه الابواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة . ولا يجوز أن يعتمد فى الشريعة على الاحاديث الضعيفة التى ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى فى فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه

---

(١) لعل أصل الكلام من يطول أى يعرف المؤلف كثيرا من الناس أتاهم الخضر الجنى يطول الكلام بذكرهم

(٢) أى التدليس والتشكيك

كذب . وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعى وروى فى فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقا ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع .

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل ، لكن إذا علم تحريمه وروى حديث فى وعيد الفاعل له ولم يعلم أنه كذب جاز أن يرويه ، فيجوز أن يروى فى الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما علم أن الله تعالى أمر به فى شرعنا ونهى عنه فى شرعنا . فأما أن يثبت شرعا لنا بمجرد الإسرائيليات التى لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد بن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث فى الشريعة ، ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذى ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه ولا كمن كان فى عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين صحيح وضعيف والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، وإلى ضعيف حسن ، كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال وإلى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك .

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف هو أبو عيسى الترمذى فى جامعه . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن فى رواته متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفا ويحتج به ، ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذى يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث ابراهيم الهجرى ونحوهما . وهذا مبسوط فى موضعه .

والأحاديث التى تروى فى هذا الباب - وهو السؤال بنفس المخلوقين - هى من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد فى أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذى يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبى ﷺ فقال إنى أتعلم القرآن ويتفلت منى ، فقال له رسول الله ﷺ : « قل اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وبابراهيم خليلك

وبموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد وبكل وحى أوحيته وقضاء قضيته ، وذكر تمام الحديث . وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدرى فى جامعه ونقله ابن كثير فى جامع الأصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف فى عمل يوم وليلة كابن السنى وأبى نعيم ، وفى مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها فى الشريعة باتفاق العلماء ، وقد رواه أبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب فضائل الأعمال وفى هذا الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوعة ، ورواه أبو موسى المدينى من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنترة وقال هذا حديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ، قال أبو موسى : ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق رضى الله عنه ، وعبد الملك ليس بذاك القوى وكان بالرى ، وأبوه وجده ثقتان .

قلت : عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب . قال يحيى بن معين وقال السعدى . دجال كذاب . وقال أبو حاتم بن حبان : يضع الحديث . وقال النسائى : متروك . وقال البخارى : منكر الحديث ، وقال أحمد بن حنبل : ضعيف ، وقال ابن عدى : له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدارقطنى : هو وأبوه ضعيفان . وقال الحاكم فى كتاب المدخل : عبدالملك بن هارون بن عنترة الشيبانى روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وأخرجه أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب الموضوعات ، وقول الحافظ أبى موسى « هو منقطع » يريد أنه لو كان رجاله ثقات فان إسناده منقطع .

وقد روى عبدالملك هذه الأحاديث الآخر[1] المناسب لهذا فى استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتى ذكره وخالف فيه عامة ما نقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن ، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا فى هذا ولا فى ذاك .

ومثل ذلك الحديث الذى رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعا وموقوفا عليه « أنه لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب

---

(١) لعل الاصل « هذا الحديث الآخر » على ان لفظ هذا صفة لعبدالملك ، ولولا ذلك لقال « المناسبة » بدل « المناسب » الا ان يكون سقط من النسخ فاعل مذكر لاسم الفعل كلفظ « معناه » أى المناسب « معناه » لهذا .

أسألك بحق محمد لما غفرت لى . قال وكيف عرفت محمداً ؟ قال : لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا . لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . قال : صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك ، وهذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهرى عن إسماعيل بن سلمة عنه . قال الحاكم ، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن فى هذا الكتاب . وقال الحاكم : هو صحيح . ورواه الشيخ أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة موقوفا على عمر من حديث عبد الله بن إسماعيل بن أبى مريم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم موقوفا ، ورواه الآجرى أيضا من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه موقوفا عليه ، وقال حدثنا هارون بن يوسف التاجر ، حدثنا أبو مروان العثمانى ، حدثنى أبو عثمان ابن خالد عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه أنه قال « من الكلمات التى تاب الله بها على آدم : قل اللهم إنى أسألك بحق محمد عليك قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال يا رب رفعت رأسى فرأيت مكتوبا على عرشك لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه أكرم خلقك » .

قلت : ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه فانه نفسه قد قال فى كتاب المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه . قلت وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيرا ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائى والدارقطنى وغيرهم ، وقال أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك .

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا إن الحاكم يصحح أحاديث وهى موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث كما صحح حديث زريب ابن برثملى الذى فيه ذكر وصى المسيح وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين ذلك البيهقى وابن الجوزى وغيرهما ، وكذلك أحاديث كثيرة فى مستدركه يصححها وهى عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة ، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن كان غالب

ما يصححه فهو صحيح ، لكن هو فى المصححين بمنزلة الثقة الذى يكثر غلطه وإن كان الصواب أغلب عليه . وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه ، بخلاف أبي حاتم ابن حبان البستى فان تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدرا ، وكذلك تصحيح الترمذى والدارقطنى وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث فان هؤلاء وإن كان فى بعض ما ينقلونه نزاع فهم أتقن فى هذا الباب من الحاكم . ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم . ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخارى ، بل كتاب البخارى أجل ما صنف فى هذا الباب . والبخارى من أعرف خلق الله بالحديث وعلله مع فقهه فيه ، وقد ذكر الترمذى أنه لم ير أحدا أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخارى إذا روى حديثا[1] اختلف فى إسناده أو فى بعض ألفاظه أن يذكر الاختلاف فى ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخارى مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه ، بخلاف مسلم بن الحجاج فانه نوزع فى عدة أحاديث مما خرجها وكان الصواب فيها مع من نازعه ، كما روى فى حديث الكسوف أن النبي ﷺ صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات كما روى أنه صلى بركوعين ، والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم . وقد بين ذلك الشافعى وهو قول البخارى وأحمد بن حنبل فى إحدى الروايتين عنه ، والأحاديث التى فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم . ومعلوم أنه لم يمت فى يومى كسوف ولا كان له إبراهيمان ، ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب ، وكذلك روى مسلم « خلق الله التربة يوم السبت » ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحي ابن معين والبخارى وغيرهما فبينوا أن هذا غلط ليس من كلام النبي ﷺ . والحجة مع هؤلاء فانه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم وكان خلقه يوم الجمعة . وهذا الحديث المختلف فيه يقتضى أنه خلق ذلك فى الأيام السبعة . وقد روى إسناد أصح

---

(١) كانت فى الأصل حديث بدون ألف فصححتها لأنها مفعول به غير ممنوع من الصرف يستحق النصب

من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد . وكذلك روى أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي ﷺ أن يتزوج بأم حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتبا ، وغلطه فى ذلك طائفة من الحفاظ .

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علما قطعيا أن النبى صلى الله علية وسلم قالها . وبسط الكلام فى هذا له موضع آخر .

وهذا الحديث المذكور فى آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر كما ذكر القاضى عياض قال وحكى أبو محمد المكى وأبو الليث السمرقندى وغيرهما « أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد اغفر لى خطيئتى - قال ويروى تقبل توبتى - فقال الله من أين عرفت محمدا ؟ قال رأيت فى كل موضع من الجنة مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال ويروى محمد عبدى ورسولى ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك . فتاب عليه وغفر له » ، ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة ولا يحتج به فى الدين باتفاق المسلمين فان هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التى لا تعلم صحتها إلا بنقل ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم . وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار المبتدأ[1] وقصص المتقدمين عن أهل الكتاب لم يجز أن يحتج بها فى دين المسلمين باتفاق المسلمين فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ، بل إنما ينقلها عن من هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه ، واضطرب عليه فيها اضطرابا يعرف[2] أنه لم يحفظ ذلك ، ولم ينقل ذلك ولا مايشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمدون على نقلهم وإنما هى من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله فى كتب المبتدا : وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعا لهم وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنيا على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا ؟ والنزاع فى ذلك مشهور . لكن الذى عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع[3] قبلنا[4] من نقل الثابت عن نبينا ﷺ أو بما تواتر

---

(١) أى مبدأ الخلق (٢) لعل الأصل : يعرف به (ر)

(٣) يظهر أنه سقط هنا كلمة (من) فيكون نظم الكلام (أنه شرع من قبلنا)

(٤) والظاهر أن أصل هذه العبارة بالنقل كما يدل على ذلك سياق الكلام

عنهم لا بما يروى على هذا الوجه ، فان هذا لا يجوز أن يحتج به فى شرع المسلمين أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعانى صاحب التفسير باسناده عن ابن عباس مرفوعا أنه قال « من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم فليكتب هذا الدعاء فى إناء نظيف أو فى صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر وليشرب به على الريق وليصم ثلاثة أيام وليكن إفطاره عليه ويدعو به فى أدبار صلواته ـ اللهم إنى أسألك بأنك مسئول لم يسأل مثلك ولا يسأل ، وأسألك بحق محمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك ووجيهك » وذكر تمام الدعاء . وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدى فيه : منكر الحديث ، وقال أبو حاتم ابن حبان : دجال يضع الحديث وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابا فى التفسير جمعه من كلام الكلبى ومقاتل ويروى نحو هذا دون الصوم عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزى حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه يحي بن معين : كذاب ، وقال الدارقطنى : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلا يلقن فيتلقن فاستحق الترك . ويروى هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبير عن عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول . ورواه أبو الشيخ الأصبهانى من حديث أحمد بن إسحاق الجوهرى : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتبى ، حدثنا يوسف بن يزيد عن الزهرى ورفع الحديث قال « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره فى آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات » .

قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شىء ، وقد رواه أبو موسى المدينى فى أماليه وأبو عبد الله المقدسى على عادة أمثالهم فى رواية ما يروى فى الباب سواء كان صحيحا أو ضعيفا كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين أنهم يروون ما روى به الفضائل ويجعلون العهدة فى ذلك على الناقل كما هى عادة المصنفين فى فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات . كما يرويه أبو الشيخ الأصبهانى فى فضائل الأعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لكثره روايته ، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية ، وكذلك

ما يرويه خيثمة بن سليمان فى فضائل الصحابة وما يرويه أبو نعيم الأصبهانى فى فضائل الخلفاء فى كتاب مفرد وفى أول حلية الأولياء ، وما يرويه أبو الليث السمرقندى وعبد العزيز الكنانى وأبو على بن البناء وأمثالهم من الشيوخ ، وما يرويه أبو بكر الخطيب وأبو الفضل بن ناصر وأبو موسى المدينى وأبو القاسم بن عساكر والحافظ عبد الغنى وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث فانهم كثيرا ما يروون فى تصانيفهم ماروى مطلقا على عادتهم الجارية ليعرف ما روى فى ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى . وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول : غريب ، ومنكر ، وضعيف . وقد لا يتكلم

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ويبنون عليه دينهم مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وسفيان ابن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعلى بن المدينى ، والبخارى ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، وأبى داود ، ومحمد بن نصر المروزى ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، وداود بن على ، ومحمد بن جرير الطبرى . وغير هؤلاء ، فان هؤلاء الذين يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا فى معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها .

وكذلك تكلموا فى الحديث والرجال ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث كما يفعل أبو أحمد بن عدى ، وأبو حاتم البستى ، وأبو الحسن الدارقطنى ، وأبو بكر الاسماعيلى . وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقى ، وأبو إسماعيل الأنصارى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد بن حزم ، وأمثال هؤلاء ، فان بسط هذه الأمور له موضع آخر ، ولم نذكر من لا يروى بإسناد مثل كتاب وسيلة المتعبدين لعمر الملا الموصلى ، وكتاب الفردوس لشهريار الديلمى ، وأمثال ذلك . فان هؤلاء دون هؤلاء الطبقات ، وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير .

والمقصود هنا أنه ليس فى هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه فى مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه ، بل المروى فى ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمدا من واضعه وإما غلطا منه .

وفى الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة ، فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا

عند الكعبة وسالوا ، وهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك ابن مروان ، ذكره ابن أبي الدنيا فى كتاب مجانى الدعاء ورواه من طريق اسماعيل ابن أبان الغنوى عن سفيان الثورى عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبى أنه قال : « لقد رأيت عجبا ! كنا بفناء الكعبة أنا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير ومصعب ابن الزبير وعبدالملك بن مروان فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليمانى وليسأل الله حاجته فانه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم ياعبدالله بن الزبير فانك أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتنى من الدنيا حتى توليني الحجاز ، ويسلم على بالخلافة ، ثم جاء فجلس . ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك رب كل شىء ، واليك يصير كل شىء ، أسألك بقدرتك على كل شىء ، ألا تميتنى من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجنى بسكينة بنت الحسين . ثم قام عبد الملك بن مروان فاخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات النبت بعد القفر أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفين حول عرشك ، إلى آخره .

قلت : واسماعيل بن أبان الذى روى هذا عن سفيان الثورى كذاب ، قال أحمد ابن حنبل : كتبت عنه ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه : وقال يحيى ابن معين : وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخضرة (يعنى المأمون) وقال البخارى ومسلم وأبوزرعة والدارقطنى : متروك . وقال الجوزجانى : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات :

وطارق بن عبدالعزيز الذى ذكر ان الثورى روى عنه لايعرف من هو . فان طارق بن عبدالعزيز المعروف الذى روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبرانى : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبوحاتم السجستانى ، حدثنا الأصمعى . قال : حدثنا عبدالرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : « اجتمع فى الحجر مصعب وعروة وعبدالله أبناء الزبير وعبدالله بن عمر فقالوا : تمنوا . فقال عبدالله بن الزبير : اما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : اما أنا فأتمنى أن

يؤخذ عنى العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبدالله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فنال كلهم ماتمنوا ولعل ابن عمر قد غفر له » .

قلت : وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم ، وليس فيه سؤال بالمخلوقات . وفى الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه : ادع بكذا وكذا ، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلا باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع الأدعية ، وروى فى ذلك أثر عن بعض السلف مثل مارواه ابن أبى الدنيا فى كتاب مجانى الدعاء ، قال : حدثنا أبو هاشم : سمعت كثير بن محمد بن كثير ابن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ - قال ماهو ؟ قال - الدبيلة[1] . قال فتحول الرجل فقال . الله الله الله ربى لا أشرك به شيئا ، اللهم إنى أتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة ﷺ تسليما ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك وربى يرحمنى مما بى ، قال فجس بطنه فقال « قد برئت ، مابك علة » .

قلت فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف ونقل عن أحمد بن حنبل فى منسك المروزى التوسل بالنبى ﷺ فى الدعاء ، ونهى به[2] آخرون . فان كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع ، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول وليس بمجرد كون الدعاء حصل به المقصود[3] ما يدل على أنه سائغ فى الشريعة فان كثيرا من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضه[4] . وبعض الناس يقصد[5] الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك ويدعو التماثيل التى فى الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه . وبعض الناس يدعو بأدعية محرمه باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضه .

---

(١) الدبيلة بضم الدال وفتح الباء واللام داء فى الجوف

(٢) كذا ولعله « ونهى عنه » (ر) (٣) لعل « ما » هذه زائدة فى الكتابة لأن الأسلوب يصح بدونها ولا فائدة لها (٤) لعل الأصل « غرضهم » اه (ر) أقول يجوز أن يكون الأصل كما هنا فيعود الضمير على كثير وهو مفرد لفظا (٥) أصل نسختنا « يقصدون » (ر)

فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته وإن كان الغرض مباحا، فان ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد، لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها، كما أن كثيرا من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع. فهذا أصل يجب اعتباره، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعى يقتضى إيجابه أو استحبابه. والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة. والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمرا مباحا.

وفى الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين.

* * *

وحديث الأعمى الذى رواه الترمذى والنسائى هو من القسم الثانى من التوسل بدعائه، فان الأعمى قد طلب من النبى ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره. فقال له «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك ـ فقال بل ادعه[1]، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويقول: «اللهم إنى أسألك بنبيك نبى الرحمة يا محمد، يارسول الله، إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه ليقضيها، اللهم فشفعه فى» فهذا توسل بدعاء النبى ﷺ وشفاعته ودعاء[2] له النبى ﷺ ولهذا قال: وشفعه فى، فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه.

وهذا الحديث ذكره العلماء فى معجزات النبى ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهر

(١) هذه هاء السكت وليست ضميرا وأصل الكلمة ادع ولما كان الوقف عليها غير ثابت زيدت هاء السكت (٢) الهمزة هنا زائدة والأصل ودعا

الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فانه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث حديث الأعمى قد رواه المصنفون فى دلائل النبوة كالبيهقي وغيره : رواه البيهقى من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن ب جعفر الخطمى ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى ، فقال له « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك وإن شئت دعوت » قال فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء ـ اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فيقضيها لى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه » قال فقام وقد أبصر . ومن هذا الطريق رواه الترمذى من حديث عثمان بن عمر ، ومنها[1] رواه النسائى وابن ماجه أيضا ، وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى ، هكذا وقع فى الترمذى وسائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمى وهو الصواب . وأيضا فالترمذى ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل رووه إلى قوله « اللهم شفعه فى » قال الترمذى حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى قال « إن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء ـ اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم شفعه فى » قال البيهقى : رويناه فى كتاب الدعوات بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة ، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد عن سلمة عن أبى جعفر الخطمى .

قلت : ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقى . قال أحمد : حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدينى : سمعت عمارة بن

(١) أى ومن هذه الطريق نفسها التى روى منها الترمذى فالطريق تؤنث وتذكر .

خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يانبي الله ادع الله أن يعافيني قال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك وإن شئت دعوت لك ، قال لا بل ادع الله لى ؛ فامره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى الله فى حاجتى هذه ، فتقضى لى وتشفعنى فيه وتشفعه فى ، قال ففعل الرجل فبرىء . رواه البيهقى أيضا من حديث شبيب بن سعيد الحنطى عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدينى ـ وهو الخطمى ـ عن أبى أمامة سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف قال سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير يشتكى إليه ذهاب بصره فقال يا رسول الله ، ليس لى قائد وقد شق على فقال رسول الله ﷺ « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربي فيجلى عن بصرى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » قال عثمان بن حنيف : والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطمى خالفت رواية شعبة وحماد بن سلمة فى الإسناد والمتن ، فان فى تلك انه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة ، وفى هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل ، وفى تلك الرواية أنه قال : فشفعه فى وشفعنى فيه وفى هذه وشفعنى فى نفسى . لكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائى عن أبي جعفر .

ورواه البيهقى من هذا الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته ـ إن كانت صحيحه ـ رواه من حديث اسماعيل بن شبيب بن سعيد الجنطى عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدينى عن أبى أمامة سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته ، فلقى الرجل عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربي فيقضى لى حاجتى . ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى أروح معك ، قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى بعدُ عثمان بن عفان

لجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معـــه على الطنفسة وقال : انظر ماكانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيرا ماكان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى . فقال عثمان بن حنيف : ما كلمته ولـكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وجاءه ضرير وشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبى ﷺ « أو تصبر »[1] ؟ فقال له : يارسول الله ليس لى قائد وقد شق على فقال « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم أنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إنى أتوجه[1] إلى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » قال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط

قال البيهقى ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله وساقه من رواية يعقوب ابن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال ورواه أيضا هشام الدستوائى عن أبى جعفر عن أبى أمامة بن سهل عن عمه وهو عثمان بن حنيف ولم يذكر إسناد هذه الطريق .

قلت : وقد رواه ابن السنى فى كتاب عمل اليوم والليلة من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن أبى جعفر عن أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف : ورواه أيضا من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبى جعفر عن عمارة ابن خزيمة ، ولم يروه أحد من هؤلاء لا الترمذى ولا النسائى ولا ابن ماجه من تلك الطريق الغريبة التى فيها الزيادة – طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم – لـكن رواه الحاكم فى مستدركه من الطريقين فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدنى سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك وإن شئت دعوت » قال : فادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هـذه ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه » قال

(١) كذا وقد علم من الروايات السابقة أنه خيره بين الدعاء له و الصبر و لعل هذا اختصار (ر)

(١) لعله سقط من هذا لفظ « بك » (ر) .

الحاكم على شرطهما ، ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحنظلى وعون بن عمارة عن روح بن القاسم عن أبى جعفر الخطمى المدنى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أنه سمع النبى ﷺ وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال يا رسول الله ليس لى قائد وقد شق على فقال « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » قال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأن لم يكن به ضر قط . قال الحاكم على شرط البخارى .

وشبيب هذا صدوق روى له البخارى لكنه قد روى له عن روح بن الفرج أحاديث مناكير رواها ابن وهب وقد ظن غلط عليه ، ولكن قد يقال مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائى بزيادة كان ذلك عليه فى الحديث ، لا سيما وفى هذه الرواية أنه قال « فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » وأولئك قالوا « فشفعه فى وشفعنى فيه » ومعنى قوله « وشفعنى فيه » أى فى دعائه وسؤاله لى فيطابق قوله « وشفعه فى ل أحمد بن عدى فى كتابه المسمى بالكامل فى أسماء الرجال - ولم يصنف فى فنه مثله : شبيب بن سعيد الحنظلى أبو سعيد البصرى التميمى حدث عنه ابن وهب بالمناكير ، وحدث عن يونس عن الزهرى بنسخة الزهرى أحاديث مستقيمة ، وذكر عن على بن المدينى أنه قال : هو بصرى ثقة كان من أصحاب يونس ، كان يختلف فى تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح . قال : وقد كتبها عن ابنه أحمد بن شبيب وروى عن عدى حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج ، أحدهما عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال : مر بنا رجل فقالوا إن هذا قد خدم النبى ﷺ . والثانى عنه عن روح بن الفرج عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد . قال ابن عدى : كذا قيل فى الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ : قال ابن عدى : ولشبيب بن سعيد نسخة الزهرى عنده عن يونس عن الزهرى وهى أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير .

وحدثني روح بن الفرج الذين أمليتهما(١) يرويهما ابن وهب عن شبيب . وكان شبيب ابن سعيد إذا روى عن ابنه(٢) أحمد بن شبيب نسخة الزهري ليس هو شبيب ابن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه ، ولعل شبيبا بمصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم(٣) وأرجو أن لا يتعمد شبيب هذا الكذب .

قلت : هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدي عليه رواهما عن روح بن القاسم وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضا كما رواه عنه ابنه ، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابنه وهذا يصحح ما ذكره ابن عدي فعلم أنه محفوظ ، وابن عدي أحال الغلط عليه لا على ابن وهب ، وهذا صحيح إن كان قد غلط وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم في ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط عليه في هذا الحديث ، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه . والرجل قد يكون حافظا لما يرويه عن شيخ غير حافظ لما يرويه عن آخر مثل إسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين فإنه يغلط فيه بخلاف ما يرويه عن الشاميين ، ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري . ومثل هذا كثير ، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم - إن كان الأمر كما قاله ابن عدي - وهذا محل نظر .

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب بن سعيد رواه من حديث أصبغ بن الفرج : حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة

(١) هكذا وظاهر أن أصله « الحديثين اللذين أمليتهما » اهـ وأقول يجوز حذف الموصوف هنا لدلالة المقام عليه (٢) عبارة الذهبي في الميزان عن ابن عدي « فاذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر » قال الذهبي يعني يجود اهـ وذلك بعد أن قال ابن عدي عنه انه إذا حدث من حفظه لعله يغلط ويهم . وفي سياق المصنف غلط آخر والآفة من النساخ وقد صححت البديهي منه (ر) .

(٣) يهم مضارع وهم . بمعنى غلط وأخطأ

له فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلى فيه ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبى الرحمة ، يا محمد ، إنى أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لى حاجتى وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان ابن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا. ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى . فقال له عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبى ﷺ : أفتصبر ؟ فقال يا رسول الله ! إنه ليس لى قائد وقد شق على ، فقال له رسول الله ﷺ ، ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال الطبرانى روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسى : والحديث صحيح .

قلت والطبرانى ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم يبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدى فانه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابناه بل ذكر فيها أن الأعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل فى حديث الأعمى أنه قال « اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه - أو قال - فى نفسى ، وهذه لم يذكرها ابن وهب فى روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدى فلم يتقن الرواية . وقد روى أبو بكر بن خيثمة فى تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال : حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا حماد بن سلمة ، نا أبو جعفر الخطمى عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن رجلا أعمى أتى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى قال « اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيى محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أستشفع بك على ربى فى رد بصرى ، اللهم فشفعنى فى نفسى وشفع نبيى

فى رد بصرى ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ، فرد الله عليه بصره .

قال ابن أبى خيثمة : وأبو جعفر هذا - الذى حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذى يروى عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة .

قلت : وهذه الطريق فيها « فشفعنى فى نفسى » مثل طريق روح بن القاسم وفيها زيادة أخرى وهى قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك - أو قال - فعل مثل لك » وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم أحفظ من حماد بن سلمة ، واختلاف الألفاظ تدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى وقوله « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » قد يكون مدرجا من كلام عثمان لا من كلام النبي ﷺ فانه لم يقل « وإن كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك » بل قال « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » .

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم تكن فيها حجة ، وإنما غايتها أن يكون عثمان ابن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع بل ببعضه ، وظن أن هذا مشروع بعد موته صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الحديث يناقض ذلك ، فإن فى الحديث أن الأعمى سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره فى الدعاء أن يقول « اللهم فشفعه فى » وإنما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعيا شافعا له بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس فى محياه فى الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم ، وفيه أيضا أنه قال « وشفعنى فيه » وليس المراد أن يشفع للنبى ﷺ فى حاجة للنبى ﷺ وإن كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة ، ففى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « من قال إذا سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته . حلت له شفاعتى يوم القيامة » ، وفى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فان من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى

إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة ، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل ، فمن صلى عليه صلى عليه الله ، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له ﷺ ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة فى الشفاعة . فلهذا قال اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه . وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ فى مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته فهو كشفاعته يوم القيامة فى الخلق ، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول « فشفعه فى وشفعنى فيه » بخلاف قوله « وشفعنى فى نفسى » فان هذا اللفظ لم يروه أحد إلا من هذا الطريق الغريب وقوله « وشفعنى فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ، وروح بن عبادة . وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذى والنسائى وابن ماجه ـ رواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة ، ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر ، وقد رواه أحمد فى المسند عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع أن قوله « وشفعنى فى نفسى » إن كان محفوظا مثل ماذكرناه ، وهو أنه طلب أن يكون شفيعا لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ولو لم يدع له النبي ﷺ كان سائلا مجردا كسائر السائلين . ولا يسمى مثل هذا شفاعة وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرا فيكون أحدهما شفيعا للآخر بخلاف الطالب الواحد الذى لم يشفع (له) غيره .

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عن من هو أكبر وأحفظ منه ، وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وإن راويها عرف له ـ عن روح هذا ـ أحاديث منكرة ، ومثل هذا يقتضى حصول الريب والشك فى كونها ثابتة ، فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذى رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه ، ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه — مع أن النبي ﷺ لم يدع له — كان هذا كلاما باطلا ، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئا ولا أن يقول فشفعه فى ، ولم

يأمره بالدعاء المأثور على وجهه ، وإنما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبى صلى الله عليه وسلم شفاعة ولا ما يظن أنه شفاعة ، فلو قال بعد موته « فشفعه فى » لكان كلاما لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان . والدعاء المأثور عن النبى ﷺ لم يأمر به ، والذى أمر به ليس مأثورا عن النبى ﷺ . ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة فى حسن العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه ، وكان ما يثبت عن النبى ﷺ يخالفه لا يوافقه لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها ، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان عمر يدخل الماء فى عينيه فى الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماء جديدا ، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين فى الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول هو موضع الغل . فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعا لهما فقد خالفهم فى ذلك آخرون وقالوا : سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا ، والوضوء الثابت عنه ﷺ الذى فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين ولا مسح العنق ، ولا قال النبى ﷺ : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل . بل هذا من كلام أبى هريرة جاء مدرجا فى بعض الأحاديث وإنما قال النبى ﷺ « إنكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء » ، وكان ﷺ يتوضأ حتى يشرع فى العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة ، وهذا لا معنى له فان الغرة فى الوجه لا فى اليد والرجل ، وإنما فى اليد والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن إطالتها فان الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة فى الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها وإطالتها مثلة .

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبى ﷺ وينزل مواضع منزله ويتوضأ فى السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحبا ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود

ومعاذ بن جبل ، وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذى فعل ، فاذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يلتمس الحجر الأسود ، وأن يصلى خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة خلف أسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما ، وأما مافعله بحكم الاتفاق ولم يقصده ، مثل أن ينزل بمكان ويصلى فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه بالصلاة والنزول فيه ، فاذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التى كان ينهى عنها عمر بن الخطاب كما ثبت بالاسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمى عن المعروف بن سويد ، قال : كان عمر بن الخطاب فى سفر فصلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبى ﷺ . فقال عمر : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا . فمن عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض . فلما كان النبى ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته فى صورة الفعل من غير موافقة له فى قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التى هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم فى ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبى ﷺ فى الصورة ومتشبه باليهود والنصارى فى القصد الذى هو عمل القلب .

وهذا هو الأصل فإن المتابعة فى السنة أبلغ من المتابعة فى صورة العمل ، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحبابا أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها ، وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان أسمح بخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا فى ذلك :

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبى ﷺ ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة ، فإن هذا لما لم يفعله سائر الصحابة ولم يكن النبى ﷺ شرعه لأمته لم يمكن أن يقال . هذا سنة مستحبة . بل غايته أن يقال : هذا مما ساغ

فيه احتهاد الصحابة ، أو مما لا ينكر على فاعله لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي ﷺ لأمته . أو يقال فى التعريف : إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة .

وهكذا يقول أئمة العلم فى هذا وأمثاله : تارة يكرهونه ، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد ، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين . فان ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ، وما سنه خلفاؤه الراشدون فانما سنوه بأمره فهو من سننه ، ولا يكون فى الدين واجبا إلا ما أوجبه ، ولا حراما إلا ما حرمه ، ولا مستحبا إلا ما أحبه ، ولا مكروها إلا ما كرهه ، ولا مباحا إلا ما أباحه .

وهكذا فى الاباحات ، كما استباح أبو طلحة أكل البرد[١] وهو صائم ، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر ، حتى قيل هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع ، وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك ، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة .

وكذلك الكراهة والتحريم . مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع[٢] ، أو التمتع[٣] مطلقا ، أو رأى تقدير مسافة القصر بحد حده[٤] ، وأنه لا يقصر بدون ذلك ، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم فى السفر . ومن ذلك قول سلمان[٥] : إن الريق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتابية لا يجوز نكاحها ، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم ، وقول على وزيد وابن عمر فى المفوِّضة[٦] :

---

(١) البرد . ماء المطر المنعقد حبات صغيرة (٢) التمتع هو الإحرام بالعمرة قبل الحج ، فمن أحرم بالحج له أن يقلبه عمرة وعليه فداء فكره بعض الصحابة ذلك مع أن السنة أجازته (٣) أى ابتداء فكرهوا أن يحرم بالعمرة أولا ثم ينتظر الحج لما فى ذلك من التمتع بمحظورات الحج فى أثناء الاحرام بالعمرة . (٤) أى بحد أطول من الذى حده به الشرع وهو المرحلتان (٥) هو سلمان الفارسى .

(٦) المفوضة هى التى زوجت بلا مهر فيجب لها مهر المثل سواء مات زوجها أو عاش إلا أن تهبه له بعد قبضه ، فخالف ذلك على وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وقالوا إذا مات زوجها فليس لها شىء ، ولكنه رأى يخالف الكتاب والسنة وقول باقى الصحابة فلا يعمل به .

أنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل أنها تعتد أبعد[١] الأجلين ، وقول ابن عمر وغيره : إن المحرم إذا مات بطل[٢] إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلال . وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط[٣] في الحج ، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل ، وقول عمر وابن مسعود : إن المبتوتة[٤] لها السكنى والنفقة . وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فانه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قال من العلماء : إن قول الصحابي حجة . فانما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقرارا على القول ، فقد يقال : هذا إجماع إقراري . إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكره أحد منهم ، وهم لا يقرون على باطل . وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال : هو حجة . وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

---

(١) المراد بالأجلين وضع الحمل ، والأربعة الأشهر والعشرة ، فيقول الإمام علي وابن عباس إن الحامل المتوفى عنها إذا وضعت قبل انقضاء أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها أكملت عدتها أربعة أشهر وعشرة ، وإذا لم تضع إلا بعد انقضاء الأشهر الأربعة والأيام العشرة كانت عدتها بوضع الحمل . ولكن القرآن جعل العدة بوضع الحمل . قال تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) (٢) الحكم الاصلي . أن المحرم بعد موته حالة الاحرام لايطيب ، ولا يؤخذ شعره وظفره ولا يغطى رأس الرجل ولا وجه المرأة إبقاء لأثر الاحرام ، ولكن بعض الصحابة خالف السنة باجتهاده وقال إن المحرم كغيره .

(٣) الاشتراط في الحج أن يقول المحرم نويت الحج وأحرمت به لله تعالى فان مرضت أو أحصرت أو نفد زادي أو ضلت الطريق أو نحو ذلك فأنا حلال . فيتحلل بمجرد حصول شيء مما شرطه ، بدون فداء ، وبعض الصحابة كابن عمر منع الاشتراط في الحج ، باجتهاده مع أن الرسول ﷺ أفتى ضباعة بنت الزبير بالاشتراط فقال لها حجي واشترطي وقولي اللهم محلي حيث حبستني وكانت شكت له أنها مريضة وتريد الحج

(٤) المبتوتة هي المطلقة طلاقا بائنا وليس لها إلا مؤخر المهر ونفقة العدة .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعيا له ولا شافعا فيه فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعا بعد مماته كما كان يشرع فى حياته ، بل كانوا فى الاستسقاء فى حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به ، بل قال عمر فى دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار فى عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا يأكل سمنا حتى يخصب الناس ، ثم لما استسقى بالناس قال « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الاجماعات الاقرارية ، ودعا بمثله معاوية بن أبى سفيان فى خلافته لما استسقى بالناس ، فلو كان توسلهم بالنبى ﷺ بعد مماته كتوسلهم فى حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبى ﷺ الذى هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله ؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم فى حياته انما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبى ﷺ ودعائه لا بذاته ، وقال له فى الدعاء قل اللهم فشفعه فى ، وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه وترك سائره المتضمن للتوسل بشفاعته ، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وكان المخالف لعمر محجوجا بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذى رواه عن النبى ﷺ حجة عليه لا له والله أعلم .

وأما القسم الثالث مما يسمى توسلا فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبى ﷺ شيئا يحتج به أهل العلم - كما تقدم بسط الكلام على ذلك - وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم ، فانه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبى ﷺ شيئا ثابتا لا فى الإقسام أو السؤال به ، ولا فى الإقسام أو السؤال بغيره من

المخلوقين ، وإن كان فى العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه ، فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه ، فيرد ماتنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، ويبدى كل واحد حجته كما فى سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله لا بالأنبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام فى تقرير ذلك ، وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبى ولا لغير نبى ، وأن هذا النذر نذر شرك لا يوفى به ، وكذلك الحلف بالقرآن[1] بالمخلوقات لا ينعقد به اليمين ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبى ﷺ لم ينعقد يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين ، إبل نهى عن الحلف بهذه اليمين ، فاذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله ؟

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قربة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء ، وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبا وإما أن يكون مستحبا ، وكل ما كان واجبا أو مستحبا فى العباداب والأدعية فلابد أن يشرعه النبى ﷺ لأمته ، فاذا لم يشرع هذا لأمته لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قربة وطاعة ولا سببا لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله فمن اعتقد ذلك فى هذا أو فى هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة ، وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرىء من أحوال النبى ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعا عندهم .

وأيضا فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسى والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعا كما أن الإقسام بها ليس مشروعا بل هو

---

(١) لعل لفظ بالقرآن زائد من سهو الناسخ والا فى الكلام حذف (ر) أقول يجوز أن تكون هنا واو محذوفة والتقدير وبالمخلوقات

منهى عنه ، فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق وإنما يسأل بالأسباب التى تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله لكن قد روى فى جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ؛ ولكن ليس فى المنقول عن النبي ﷺ شىء ثابت بل كلها موضوعة ، وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذى رواه أحمد وابن ماجه وفيه « بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا » رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ﷺ قال « من قال إذا خرج إلى الصلاة اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فانى لم أخرجه[1] أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تدخلنى الجنة وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفى عن أبى سعيد ، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم ، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضا ، ولفظه لا حجة فيه ، فان حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم ، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم ، وبايجابه على نفسه فى أحد أقوالهم ، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك ، وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه فى الغار بأعمالهم فانه سأله هذا ببره العظيم لوالديه وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وقال تعالى (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وكان ابن مسعود يقول فى

---

(١) الضمير يعود على الخروج المفهوم من قوله (ممشاى هذا)

السحر : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا سحر فاغفر لى .

وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشىء من المخلوقات ، والسؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجابا أو استحبابا ، أو منهيا عنه نهى تحريم أو كراهة ، أو مباحا لا مأمورا به أو منهيا عنه ، وإذا قيل : إن ذلك مامور به أو مباح ، فاما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فمن قال إن هذا مأمور به أو مباح فى المخلوقات جميعها لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الانس والجن فهذا لايقوله مسلم . فان قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التى أقسم بها فى كتابه . لزم من هذا أن يسأل بالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وماسواها — ويسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، ويسأل بالذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا — ويسال بالطور ، وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور — ويسأل ويقسم عليه بالصفات صفا ، وسائر ما أقسم به الله فى كتابه فان الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته ، فهى دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه ، ونحن المخلوقات ليس لنا أن نقسم بها بالنص والاجماع . بل ذكر غير واحد الاجماع على أنه لايقسم بشىء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهى عنه . ومن سال الله بها لزمه أن يساله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح والسحاب والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون وطور سينين ، ويساله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت والصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ومنى وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يساله بالمخلوقات التى عبدت من دون الله ، كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله ومما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع

المنكرة فى دين الإسلام ، وما[1] يظهر قبحه للخاص والعام ، ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالأقسام والعزائم التى تكتب فى الحروز والهياكل[2] التى تكتبها الطرقية[3] والمعزمون . بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ[4] فتكون العزائم والاقسام التى يقسم بها على الجن مشروعة فى دين الاسلام ، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الاسلام ومن دين الأنبياء أجمعين .

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات ، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره ، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم . قيل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة فى أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى ، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق كما ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليصمت » وقال « لا تحلفوا إلا بالله » وفى السنن عنه أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق فى ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي .

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات فى ذم الشرك بها وإن كانت

---

(١) سياق الأسلوب يقتضى أن يكون هكذا (ومما يظهر) الخ (٢) الأقسام جمع قسم وهو اليمين ، والعزائم جمع عزيمة ، وهى الصيغة من الدعاء ونحوه والحروز جمع حرز وهو ما توضع فيه العزائم وغيرها كالاحجبة التى يحملها العوام وفيها بعض الآيات القرآنية والدعوات المخصوصة والهياكل جمع هيكل ، وهو صورة الأشياء ، كصورة الحوت أو القط أو الهدهد وفيها بعض العزائم والتعاويذ ولعل هنا واوا سقطت قبل كلمة الهياكل والأصل (والهياكل)

(٣) الطرقية نسبة إلى الطرق ، وهم أهل الطرق الصوفية ممن ليسوا على شى من العلم ويعتقدون أن مثل ما سبق من التعاويذ وغيرها تنفع حاملها ، والمعزمون منهم جماعة من أصحاب الطريق ومنهم دجالون يتعاطون العزائم حرفة يبتزون بها أموال الجهلة والسذج

(٤) هذه الفاء زائدة فى الأسلوب ولعلها من تحريف الناسخ .

معظمة . قال تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟) وقال تعالى (قُلْ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة : فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادى يرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ، ويتقربون إلى كما تتقربون إلى . وقد قال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللهَ وَيَتَّقْهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فبين أن الطاعة لله والرسول ، فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وبين أن الخشية والتقوى لله وحده فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) وقال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغى لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ، ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ، فذكر الرضاء بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله فى تبليغ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ووعده ووعيده . فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله . ولهذا قال تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله ، والأموال المشتركة بينه كمال الفىء والغنيمة والصدقات ، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك ، ثم قال تعالى (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ) ولم يقل : ورسوله فإن الحسب هو الكافى ، والله وحده كاف

عباده المؤمنين كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . هذا هو القول الصواب الذى قاله جمهور السلف والخلف كما بين فى موضع آخر ، والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه ، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه ثم قال تعالى (سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) فذكر الإيتاء لله ورسوله ، لكن وسطه بذكر الفضل فان الفضل لله وحده بقوله (سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) ثم قال تعالى (إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات

فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات فى هذه الأحكام ، لم يجعل لأحد من المخلوقين سواء كان نبيا أو ملكا أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى .

وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ[1] إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) فقد تهدد سبحانه شيئا[2] من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا[3] فى ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ، ولم يبق إلا للشفاعة وهى حق ، لكن قال الله تعالى (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة فى الشفاعة يوم القيامة ، إذا أتى الناس آدم وأولى العزم نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فيردهم كل واحد إلى الذى بعده إلى أن يأتوا المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد ـ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال ﷺ

(١) كانت كلمة (عنده) ساقطة من الآية فى الأصل الذى علق عليه السيد رشيد فزدناها فى هذه الطبعة . والآيات من سورة سبأ وقد سبق بيانها فى موضع سابق .

(٢) لا بد أن يكون أصل الكلام « فقد تهدد سبحانه من طلب شيئا من دون الله » أو نحو ذلك (ر) (٣) حق هذه الكلمة أن تكون « شرك » بدون ألف لأنها معطوفة على اسم لا النافية للجنس فى قوله « لا ملك لهم » واسم لا النافية للجنس مبنى ممنوع من الصرف

« فيأتونى فأذهب إلى ربى ، فاذا رأيته خررت ساجدا وأحمد ربى بمحامد يفتحها على لاأحسنها الآن ، فيقال لى : أى محمد ! ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه[١] واشفع تشفع - قال - فيحد لى حد فأدخلهم الجنة » وذكر تمام الخبر . فبين المسيح أن محمدا هو الشافع المشفع ، لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وبين محمد عبد الله ورسوله أفضل الخلق وأوجه الشفعاء وأكرمهم على الله تعالى أنه ياتى فيسجد ويحمد لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له ، فيقال له : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، وذكر أن ربه يحد له حدا فيدخلهم الجنة . وهذا كله يبين أن الأمر كله لله هو الذى يلزم الشفيع بالإذن له فى الشفاعة ، والشفيع لايشفع إلافيمن يأذن[٢] ثم يحد للشفيع حدا فيدخلهم الجنة . فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره ، وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذى فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه .

وإذا كان الإقسام بغيرالله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هى من الأحكام التى اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق أن يقسم به ولا يتقى ولا يتوكل عليه ، وإن كان أفضل المخلوقات ، ولايستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين ، فضلا عن غيرهم من المشايخ والصالحين .

فالسؤال لله تعالى بالمخلوقات[٣] إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله وإن لم يكن سائغا لم يجز أن يسأل بشىء من ذلك ، والتفريق فى ذلك بين معظم ومعظم كتفريق من فرق يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر . ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به وبين ما لا يؤمن به ، قيل له فيجب الايمان بالملائكة والنبيين ، ويؤمن بكل ما أخبر به فكذلك ماعطف عليه

---

(١) هذه الهاء هاء السكت يؤتى بها عند الوقف إذا كان الحرف الموقوف عليه متحركا لايمكن مده وهنا حذف المد بسبب جزم الفعل فى جواب الأمر فأتى بهاء السكت (٢) لا بدأن يكون سقط هنا بعض الكلمات والاصل (فيمن يأذن له الله فيه)

(٣) هذه الجملة المؤلفة من بضعة أسطر فيها عسلطة واضطراب ، فلاشك ان فيها تحريفا وغلطا وأنه سقط منها بعض الكلم اهر . تقديره (كالشمس والقمر والليل والصبح والتين والزيتون ونحو ذلك) .

الرسول مثل منكر ونكير والحور العين والولدان وغير ذلك ، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الايمان بها ؟ أم يجوز السؤال بها كذلك ؟ .

فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسئول به سببا لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق ، كما لافرق بين القسم بمخلوق ومخلوق ، وكل ذلك غير جائز . فتبين أنه لايجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء والله أعلم .

وأما قوله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) فكانت اليهود تقول للمشركين : سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم : لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ولا يسألون به ، أو[1] يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأمى لنتبعه ونقتل هؤلاء معه . هذا النقل الثابت عند أهل التفسير وعليه يدل القرآن فإنه قال تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ) والاستفتاح الاستنصار وهو طلب الفتح والنصر ، فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه ، فبهذا ينصرون ، ليس هو باقسامهم به وسؤالهم به ، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا ، ولم يكن الأمر كذلك ، بل لما بعث الله محمدا ﷺ نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه .

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له . وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى دلائل النبوة (وفى كتاب) الاستعانة الكبير (وكتب) السير ، ودلائل النبوية والتفسير مشحونة بذلك . قال أبو العالية وغيره : كان اليهود إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وروى محمد ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الانصارى عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ماكنا نسمع من رجال يهود ،

(١) لعل الصواب « بل يقولون » وسيأتى ما يؤيده (ر) .

وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرمَ . كثيرا ما كنا نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله محمداً رسولا من عند الله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل (هؤلاء[١] قبل) الآيات التى فى البقرة (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ[٢] يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسرى السلف إلا هذا ، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف ، بل ذكروا الاخبار به ، أو سؤال الله أن يبعثه ، فروى ابن أبي حاتم عن أبى رزين عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : يستظهرون يقولون نحن نعين محمدا عليهم وليسوا كذلك ، يكذبون . وروى عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : كانوا يقولون : إنه سيأتى نبي (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وروى بإسناده عن أبى إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد قال أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بإنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا شيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم

---

(١) الكلام هنا غلط كما يرى القارىء ، وصحته نزلت هذه الآيات التى فى البقرة .

(٢) كانت كلمة قبل ناقصة من الآية فى الطبعة الثانية التى علق عليها السيد رشيد رضا فزدناها فى هذه الطبعة .

فانزل الله تعالى من قولهم (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا به فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ) وروى بإسناده عن الربيع بن أنس عن أبي العالية . قال كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا به فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعادت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم . فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأنزل الله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه . وقال : أدت الضرورة إلى إخراجه . وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فان عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك بل كذاب . وقد تقدم ماذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة في حقه .

قلت : وهذا الحديث من جملتها[1] ، وكذلك الحديث الآخر الذي يرويه عن أبي بكر كما تقدم . ومما يبين ذلك أن قوله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولا كبني قينقاع وقريظة والنضير ، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم ، فحارب أولا بني قينقاع ثم النضير — وفيهم نزلت سورة الحشر — ثم قريظة عام الخندق . فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان ؟ فان هذا من كذب جاهل لم يحسن كيف يكذب

(١) أي من جملة كذباته المفهومة مما تقدم .

ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء . وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعى الصادقين على نقله .

ومما ينبغى أن يعلم أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به والاقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه فى الأحكام ، لأنه أولا لم يثبت وليس فى الآية ما يدل عليه ، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعا لنا فان الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه (له) وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور ، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وهذا كقوله تعالى : (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) ، والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ، ومنه الحديث المأثور أن النبى ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر بهم أى بدعائهم كما قال « وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟ بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم » وهذا قد يكون بان يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ، بأن يعجل بعث ذلك النبى إليهم ليفتصروا به عليهم ، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) فلو لم ترد الآثار التى تدل على أن هذا معنى الآية لم يجز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل لأنه لا دلالة فيها عليه . فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ؟

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون ، فقد بينا أنه شاذ وليس هو من الآثار المعروفة فى هذا الباب ، فان اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم ، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج . وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه ، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك ، فقال تعالى (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ

وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) فاليهود — من حيث ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس — لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم ، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه . قال تعالى (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ . فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) فاذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره فى حياته ﷺ وبعد موته يقسمون بذاته بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته فكيف يقال فى دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم ؟

وقد قال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا • أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما فنهى الله عن ذلك وأخبر تعالى ان هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه ، وانهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مسجدا وأن يتخذ عيدا ، وقال فى مرض موته « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا أخرجاه فى الصحيحين . وقال « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك فى موطئه وقال « لا تطرونى[1] كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبدالله ورسوله » متفق عليه . وقال « لا تقولوا : ماشاء الله وشاء محمد . بل ماشاء الله ثم ماشاء محمد » وقال له بعض الأعراب : ماشاء الله وشئت ـ فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده » وقد قال الله تعالى له (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) وقال تعالى (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) وقال تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلاهم منزلة عند الله .

وقد روى الطبرانى فى معجمه الكبير أن منافقا كان يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق . فقال له النبي ﷺ « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » وفى صحيح مسلم فى آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » وفى صحيح مسلم أيضا وغيره أنه قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » وفى الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبى هريرة وله طرق متعددة عن غيرهما أنه قال « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتى قبر النبي ﷺ فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأته ، وإن أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ذكره القاضى إسماعيل فى مبسوطه .

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم ينعقد يمينه ، ولا فرق فى ذلك بين الأنبياء

---

(١) أى لا تمدحونى وتمجدونى .

والملائكة وغيرهم ، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم ، وللأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، ولبعضهم على بعض حق . لحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم فى حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله ندا لا فى محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به ، كما فى الصحيحين أنه قال ﷺ « من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار » وسئل أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقيل له : ما شاء الله وشئت . فقال أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » وقد قال تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، (وقال الله لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) ، (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) وقال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) وقال تعالى فى فاتحة الكتاب التى هى أم القرآن (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) وقال تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي) وقال تعالى (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ) .

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه قال تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ : أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ ♦ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ♦ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال لهم النبى ﷺ « إنما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح[1] : (يَا بُنَيَّ

(١) هو لقمان عليه السلام .

لا تُشرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ) وقال تعالى « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ » فجعل الطاعة لله والرسول فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده فلا يخشى إلا الله ، ولا يتقى إلا الله ، وقال تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) ، وقال تعالى : (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول فى أول الكلام وآخره كقوله تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) مع جعله الفضل لله وحده ، وهو تعالى وحده حسبهم لاشريك له فى ذلك . وروى البخارى عن ابن عباس فى قوله (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) قال : قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ) ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . كما بسط ذلك بالأدلة ، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله فى أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ، فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله ، قال تعالى (وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وقال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) وقال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة

الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » وقد قال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول وتعزيره نصره ومنعه ، والتسبيح بكرة وأصيلا لله وحده ، فان ذلك من العبادة والعبادة هى لله وحده ، فلا يصلى إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله ، ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة ، لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله باذن الله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يحلف إلا بالله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله .

وأما ماخلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة فى ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة فى التبليغ ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب ، وليس فى المخلوقات شىء يستقل بابداع شىء بل لا بد للسبب من أسباب أخر تعاونه ، ولا بد من رفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فان الرسول وحده كان واسطة فى تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى فى قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلا له ، وإلا فلو استغفر النبى للكفار والمنافقين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل فى أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم فى كل ما أخبروا به ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل لانفرق بين أحد منهم ، ومن

سب واحدا منهم كان كافرا مرتدا مباح الدم .

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بينا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص ، فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ولا يتوسل بذواتهم . وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم ، وطاعاتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه وتحريم ما حرموه .

والتوسل بذلك على وجهين (أحدهما) أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، لحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم وقد تقدم بيان ذلك (والثانى) التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فإن الأعمال الصالحة التى أمر بها الرسول ﷺ هى الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كقول المؤمنين (رَبنا إنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي للإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ) فإنهم قدموا ذكر الايمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين فى قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبى ﷺ وشفاعته فانه يكون على وجهين (أحدهما) أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه فى حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا ثم الخليل ثم موسى الكليم ثم عيسى . ثم يأتون محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة .

(والوجه الثانى) أن يكون التوسل مع ذلك يسأل[1] الله تعالى بشفاعته ودعائه كما فى حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره ، فانه طلب منه الدعاء والشفاعة ، فدعا له الرسول وشفع فيه وأمره أن يدعو الله فيقول : اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك به ،

(١) لعل أصله بأن يسأل .

اللهم فشفعه فى ، فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ، بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ، والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ، فهذا توسل بما لم يوجد وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه . ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما تقدم ، فان عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فانهم استشفعوا جميعا ولم يكن العباس وحده هو الذى دعا لهم ، فصار التوسل بطاعته والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ولا يكون بدون ذلك . فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع فى واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .

ودين الإسلام مبنى على أصلين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلها آخر ، فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى بين المخلوق والخالق فى شىء من ذلك فقد عدل بالله ، وهو من الذين بربهم يعدلون (١) وقد جعل مع الله إلها آخر ، وان كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض . فان مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله) وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى ((٢) إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ) وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله) فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه ، لأنهم قالوا ان آلهتهم خلقوا كخلقه . كما قال تعالى (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟) وهذا استفهام انكار بمعنى النفى ، أى ما جعلوا الله شركاء خلقوا

---

(١) يشير المصنف إلى قوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » أى يجعلون له عدلا ، وهو بكسر العين المعادل والنظير (ر)

(٢) صحة الآية « أئنكم » ، وتمامها قل « أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » من سورة الأنعام .

كخلقه ، فانهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه ، وإنما يجعلونهم شفعاء ووسائط قال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ : هَـؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ . قُلْ أَتُنَبِّؤُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال صاحب يس (وَمَالِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ! ء أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِى الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ؟ ء إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ! ء إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) .

(الأصل الثانى) أن نعبده بما شرع على ألسنة رسله ، لا نعبده إلا بواجب أو مستحب ، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل فى ذلك . والدعاء من جملة العبادات . فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم ـ مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب ـ كان مبتدعا فى الدين ، مشركا برب العالمين مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فان ذم من خالفه وسعى فى عقوبته كان ظالما جاهلا معتديا ، وان حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله وكان حكمه منقوضا باجماع المسلمين وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه . وهذا كله مجمع علية من المسلمين ، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

وقد بسط الكلام على هذه الأمور فى مجلدات ، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكام وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز . وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن ايراد شىء من فصوله ها هنا ، لافراد الكلام فى هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتى إيراد ما اختصر منه وحررت فصوله فى ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم وبالله التوفيق .

وكنت وأنا بالديار المصرية فى سنة إحدى عشرة وسبع مائة قد استفتيت عن التوسل بالنبى ﷺ فكتبت فى ذلك جوابا مبسوطا ، وقد أحببت إيراده هنا لما فى ذلك من مزيد الفائدة فان هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك

والغلو ، كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورا على نور والله المستعان .

(وصورة السؤال) : المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين .

(وصورة الجواب) : الحمد لله رب العالمين : أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له فى الشفاعة ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ويشفع أيضا لعموم الخلق فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين ، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره ، فانه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التى ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه ، ومن ذلك المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة ، منها فى الصحيحين أحاديث متعددة ، وفى السنن والمسانيد مما يكثر عدده .

وأما الوعيدية [1] من الخوارج والمعتزلة فزعموا ان الشفاعة انما هى للمؤمنين خاصة فى بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقا .

وأجمعوا على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به فى حياته بحضرته ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك ان عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم انا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون . وفى البخارى أيضا عن ابن عمر أنه قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا انظر الى وجه النبي ﷺ يستسقى فما ينزل حتى يجيش [2] كل ميزاب .

---

(١) الوعيدية نسبة إلى الوعيد وهو ضد الوعد ، أى الذين يغلبون جانب الوعيد على جانب الوعد ويتشددون فى الدين ويغلون فيه خارجين على جماعة المسلمين التى لازمت الاعتدال ولم تغل ولم تفرط .

(٢) يجيش كل ميزاب أى يفيض كل مسيل للماء .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال(١) اليتامى عصمة للأرامل(٢)

والتوسل بالنبى ﷺ الذى ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً فى سائر أحاديث الاستسقاء وهو من جنس الاستشفاع به، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعا وسائلا لنا، بأبى هو وأمى صلى الله عليه وسلم.

وكذلك معاوية بن أبي سفيان لما أجدب الناس بالشام استسقى بيزيد بن الاسود الجرشى فقال: اللهم إنا نستشفع أو نتوسل بخيارنا، يا يزيد! ارفع يديك فرفع يديه ودعا، ودعا الناس حتى سقوا. ولهذا قال العلماء يستحب أن يستسقى باهل الدين والصلاح، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن.

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه، فانه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبى ﷺ دخل عليه أعرابى فقال: يارسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. فرفع النبى ﷺ يديه وقال (اللهم أغثنا! اللهم أغثنا اللهم أغثنا!) ومافى السماء قزعة(٣) فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعا لا يرون فيه الشمس، حتى دخل الأعرابى أو غيره فقال: يارسول الله انقطعت السبل وتهدم البنيان، فادع الله يكشفها عنا. فرفع يديه وقال «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام(٤) والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية» فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب. والحديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما. وفى حديث آخر فى سنن أبى داود وغيره أن رجلا قال له: انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. فسبح رسول الله ﷺ حتى رؤى ذلك فى وجوه

---

(١) الثمال بكسر الثاء الغياث أى مغيث اليتامى.

(٢) الأرامل جمع أرملة وهى المرأة المحتاجة أو المسكينة، أو الرجال الضعفاء المحتاجون

(٣) القزعة القطعة الصغيرة من الغمام الذى يحمل المطر وتسمى السحابة أيضا.

(٤) الآكام جمع أكمة وهى الأرض المرتفعة والظراب جمع ظرب بوزن كتف وهو الجبل الصغير أو المتبسط او الأودية جمع واد وهو الأرض المبسوطة بين الجبلين، أى دعا النبى ﷺ بأن يحمل الله المطر فى هذه الأماكن البعيدة عن العمران حتى لا تتلف الأبنية ويتعذر على الناس السير وقضاء المصالح وقد اجاب الله دعاءه كما سيأتى.

أصحابه . وقال « ويحك أتدرى ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك » ، وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص فى كلام النبى ﷺ وأصحابه هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ، ليس هو السؤال بذاته ، فانه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق ، ولكن لما كان معناه هو الأول ، أنكر النبى ﷺ قوله « نستشفع بالله عليك » ، ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه ان يقضى حاجة الطالب ، والله تعالى لا يسأل أحدا من عباده ان يقضى حوائج خلقه ، وان كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى فى مثل قوله .

شفيعى إليك الله لارب غيره ... وليس إلى رد الشفيع سبيل

وكذلك بعض الاتحادية[1] ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبى ﷺ وكلاهما خطا وضلال ، بل هو سبحانه المسئول المدعو الذى يسأله كل من فى السموات والأرض ، ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه ، وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فانما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله . قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ — وقال تعالى — مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، قال ﷺ فى الحديث الصحيح « على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ومنشطه[2] ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فاذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة وقال ﷺ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وأما الشافع فسائل لا تجب طاعته فى الشفاعة وإن كان عظيما ، وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ سأل بريرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت ، وخيرها

---

(١) الاتحادية الذين يقولون بوحدة الوجود وأن الخلق نشأ عن ذات الله فهو والخلق شىء واحد

(٢) المنشط ماينشط له الانسان ويفرح به ويكون فى صالحه ، والمكره مايكرهه الانسان ولا تكون نفسه راضيه به لأنه تكليف شاق أو لأنه يمنع النفس بعض لذاتها والجسم بعض مطالبه .

النبي ﷺ فاختارت فراقه ، وكان زوجها يحبها فجعل يبكى ، فسألها النبي ﷺ أن تمسكه فقالت : أتأمرنى ؟ فقال « لا ! إنما أنا شافع » وإنما قالت أتأمرنى ؟ وقال : إنما أنا شافع لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته ، فانه لا يجب قبول شفاعته ولهذا لم يلمها النبي ﷺ على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى أن لا يجب قبولها ؛ والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعا إلى مخلوق بل هو سبحانه أعلى شأنا من أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه . قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ! بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ◦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ◦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) ودل الحديث المتقدم على أن الرسول ﷺ يستشفع به إلى الله عز وجل ، أى يطلب منه الشفاعة فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة فى أن يقضى الله بينهم وفى أن يدخلوا الجنة ، ويشفع فى أهل الكبائر من أمته ، ويشفع فى بعض من يستحق النار أن لا يدخلها ويشفع فى بعض من دخلها أن يخرج منها .

ولا نزاع بين جماهير الأئمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين الثواب ، ولكن كثيرا من أهل البدع والخوارج والمعتزله أنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، فقالوا : لا يشفع لأهل الكبائر . بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها . ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع فى أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد فى النار من أهل الإيمان أحد ، بل يخرج من النار من فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان ، لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون فى حياته بمعنى انهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم فكان توسلهم بدعائه والاستشفاع به طلب شفاعته والشفاعة دعاء .

فأما التوسل بذاته فى حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الاقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهورا عند الصحابة والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب

رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حيا كالعباس وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا فى هذه الحال بالنبى ﷺ لاعند قبره ولاغير قبره بل عدلوا الى البدل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه فى دعائهم ، وقد قال عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذى كانوا يفعلونه ، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا فى دعائهم : بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التى تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ، فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس .

وروى بعض الجهال عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فان جاهى عند الله عظيم . وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا - وقال تعالى - إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ؟ وصاحب الكوثر والحوض المورود الذى آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ؟ وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويتقدم هو إليها ، وهو صاحب اللواء — آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل ، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، ذو الجاه العظيم ﷺ وعلى آله .

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق، فانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه (إنْ كُلُّ مَن فِى السَّمواتِ وَالأرْضِ إلا آتى الرحْمَن عَبْداً. لَقَدْ أحْصَاهُمْ وَعدهُمْ عَدًّا) وقال تعالى (لَن يَستنكِفَ المَسيحُ أن يكُونَ عَبْداً لله وَلا المَلائكة المُقرَّبونَ، ومَنْ يَستنكف عَنْ عبادَتِه ويَستكبر فَسيحشرهم إليه جَميعاً. فأمَّا الذين آمنوا وعَملُوا الصَّالحَات فيُوفيهم أُجُورهُمْ ويَزيدهُمْ من فَضْلهِ، وَأمَّا الذينَ استنكفُوا وَاسْتكْبرُوا فيعذبهم عذَاباً أليماً وَلا يَجدُونَ لَهُمْ من دُونِ الله وَلِيًّا وَلا نَصيراً).

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له فى حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له، كما قال سبحانه (قُلْ: ادعُوا الذينَ زَعمتُمْ مِنْ دُونِ الله لا يَملكُونَ مِثقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْك وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِير. وَلا تَنفَعُ الشفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أذِنَ لَهُ).

وقد استفاضت الأحاديث عن النبى ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من يفعل ذلك، ونهى عن اتخاذ قبره عيدا: وذلك لأن أول ماحدث الشرك فى بنى آدم كان فى قوم نوح. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون وكلهم على الإسلام. وثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أن نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وقد قال الله تعالى عن قومه إنهم قالوا (لا تَذرُنَّ آلهتَكُمْ وَلا تَذرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعاً. وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أضَلُّوا كَثيراً) قال غير واحد من السلف: هؤلاء كانوا قوما صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم وقد ذكر البخارى فى صحيحه هذا عن ابن عباس، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الاصنام.

فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبى ﷺ حسم مادة الشرك بالنهى عن اتخاذ القبور مساجد وإن كان المصلى يصلى لله عز وجل، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس، وإن كان المصلى إنما يصلى لله تعالى، وكان الذى يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذى لا يقصد إلا الصلاة

لله عز وجل — لم يكونوا يفعلون ذلك . وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته ، والتوسل بدعائه وشفاعته ، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا . فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئاً من ذلك ، ولادعوا بمثل هذه الأدعية ، وهم أعلم منا وأعلم[١] بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به ورسوله من الأدعية ، وما هو أقرب من الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ — دل عدو لهم[٢] عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول إن التوسل المشروع بالافضل لم يكن ممكنا .

وقد قال ﷺ « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على[٣] قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك فى موطئه ورواه غيره ، وفى سنن أبى داود عن النبى ﷺ أنه قال : « لاتتخذوا قبرى عيدا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » وفى الصحيحين أنه قال فى مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر مافعلوا . قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وفى صحيح مسلم عن جندب أن النبى ﷺ قال قبل أن يموت بخمس « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، فان الله قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وقد روى الترمذى حديثا صحيحا عن النبى ﷺ أنه علم رجلا أن يدعو فيقول : اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد يارسول الله ! إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى ليقضيها لى ، اللهم شفعه فى . وروى النسائى نحو هذا الدعاء ، وفى الترمذى وابن ماجه عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله

(١) قوله « وأعلم » زائد . والا فأصل العبارة : وهم أعلم منا بالله ورسوله ، وأعلم بما يحب الله ورسوله الخ فقد سقط لفظ « بالله ورسوله » من الناسخ . وسيأتى نظيره بعد ذلك

(٢) هذا جواب قوله « فلما علمت الصحابة » الخ .

(٣) كانت لفظة « على » ساقطة فى الطبعة الثانية فزدناها هنا .

أن يعافيني فقال : ان شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك ، فقال : فادعه . فأمره أن يتوضا فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يارسول الله يامحمد ! انى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائى عن عثمان بن حنيف ولفظه ان رجلا أعمى قال : يارسول الله ! ادع الله أن يكشف عن بصرى . قال « فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يامحمد ! إنى أتوجه بك إلى ربى ان يكشف عن بصرى اللهم فشفعه فى » قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره وقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمى المدينى قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله ! ادع الله أن يعافينى فقال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وان شئت دعوت لك » قال : لا ! بل ادع الله لى . فأمره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين وان يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى ، اللهم فشفعنى فيه وشفعه فى . قال ففعل الرجل فبرأ .

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله فى الدعاء فمن الناس من يقول : هذا يقتضى جواز التوسل به مطلقا حيا وميتا . وهذا يحتج به من يتوسل بذاته بعد موته وفى مغيبه ، ويظن هؤلاء ان توسل الأعمى والصحابة فى حياته كان بمعنى الإقسام به على الله أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته ان يقضى حوائجهم ، ويظنون أن التوسل به لايحتاج إلى أن يدعو هو لهم ولا إلى أن يعطوه ، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع ، الجميع عندهم توسل به ، وسواء أطاعوه أولم يطيعوه ، ويظنون أن الله تعالى يقضى حاجة هذا الذى توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول ، كما يقضى حاجة هذا الذى توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ، إذ كلاهما متوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبى ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى ، وان ما أمر به الأعمى مشروع لهم : وقول هؤلاء باطل شرعا وقدرا ، فلاهم موافقون لشرع الله ولا مايقولونه مطابق لخلق الله .

ومن الناس من يقولون : هذه قضية عين[١] يثبت الحكم فى نظائرها التى تشبهها فى مناط[٢] الحكم ، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها . والفرق ثابت شرعا وقدرا بين من دعا له النبي ﷺ ، وبين من لم يدع له ، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر ، وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ فلهذا قال فى دعائه : اللهم فشفعه فى . فعلم أنه شفيع فيه ، ولفظه «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك ، فقال : ادع لى . فهو طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ، فأمره النبي ﷺ أن يصلى ويدعو هو ايضا لنفسه ويقول فى دعائه . اللهم فشفعه فى . فدل ذلك على أن معنى قوله : أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد . أى بدعائه وشفاعته كما قال عمر : اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا . فالحديثان معناهما واحد ، فهو ﷺ علم رجلا أن يتوسل به فى حياته ، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا .

ثم أنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه . فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء ، والمتوسل به الذى دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول - لم يعدلوا عن التوسل به ، وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وأقربهم إليه وسيلة ، إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله . وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول . بمنزلة ذلك الأعمى ، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى . فعدولهم عن هذا ، إلى هذا ، مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان ، فانهم أعلم منا بالله ورسوله ، وبحقوق الله ورسوله ، وما يشرع من الدعاء وينفع ، وما لم يشرع ولا ينفع ، وما يكون أنفع من غيره ، وهم فى وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وانزال الغيث بكل طريق ممكن - دليل[٣] على أن المشروع ما سألوه دون ما تركوه . ولهذا ذكر الفقهاء فى كتبهم فى الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه ، وذلك أن التوسل به حيا هو من جنس مسألته ان يدعو لهم ، وهذا مشروع . فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ فى حياته أن يدعو لهم . وأما بعد موته ، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء ، لا عند قبره ، ولا عند غير قبره ، كما

---

(١) أى حادثة معينة (٢) مناط الحكم هو سببه وعلته وثبوت الحكم هنا قياس فى أمثال الحادثه المعينه إنما يكون بالقياس على الأصل لاتحاد السبب والعلة ولكنه قياس مع الفارق

(٣) هذا خبر قوله : فعدولهم (ر)

يفعله كثير من الناس عنـد قبور الصالحين ، يسأل أحدهم حاجته ، أو يقسم على الله به ونحو ذلك ، وإن كان قد روى فى ذلك حكايات عن بعض المتأخرين .

بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن ، حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه فى العمرة « لاتنسنا يا أخى من دعائك » ـ ان صح الحديث ـ وحتى أمر النبي ﷺ أن يطلب من أويس القرنى أن يستغفر للطالب وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير ، وقد قال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح « إذ سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فانه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق ، بل هو تعليم لأمته ماينتفعون به فى دينهم ، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله أجره ، فانا اذا صلينا عليـه مرة صلى الله علينا عشرا ، وإذا سألنا الله له الوسيلة ، حلت علينا شفاعته يوم القيامة ، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا ، فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شىء ، فانه ﷺ قال « من دعا إلى هدى ، كان له من الاجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا » وهو الذى دعا أمته إلى كل خير ، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون اليه ثواب أعمالهم ولايحجون عنه ولايتصدقون ولا يقرؤون القرآن ويهدون له ، لان كـل مايعمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له ﷺ مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، بخلاف الوالدين ، فليس كل ماعمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره ، ولهذا يهدى الثواب لوالديه وغيرهما[1] .

---

(١) وهذه المسألة اختلف فيها الفقهاء فقال بعضهم بجواز الاهداء ونفعه قياسا على الحج عن الوالدين والصوم عنهما . وقال آخرون لايجوز ولا ينفع لقوله تعالى « وأن ليس للانسان الا ماسعى » ، والصوم والحج عن الوالدين لاينافى هذا كما ينافيه أى عمل يهدى لاى انسان ، لان الاولاد يعدون من عمل الانسان كما فى حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » ، والصيام والحج كالدعاء . والاجنبي ليس كالولد فيقاس عليه (اهـ ر) . وأقول : لايصح قياس الأعمال التى تهدى

ومعلوم أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل فى قوله تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) فهو ﷺ لا يرغب إلى غير الله ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقى نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى فى هذا « لا يرقون » ضعيفة غلط . فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من

إلى الأموات على الصيام والحج ، لأن الصيام والحج ورد النص بجوازهما ونفعهما من الولد فقط بعد وجوب الحج والصيام على الميت وعجزه بالموت عن أدائهما فيقضيها الأولاد عنه ، إنما الذى ينفع الميت مطلقا سواء كان والدا أو غيره هو الدعاء له ، وإذا فعل الداعى قبل الدعاء فعلا يجعل دعاءه أقرب إلى الإجابة كصلاة وقراءة قرآن وصدقة ونحو ذلك فلا بأس بهذه الأعمال لأنها تساعد على إجابة الدعاء ونفعه للميت ، أما أن يقرأ الحى القران أو يصلى الصلاة ثم يقول . وهبت ثواب ماقرأت أو صليت إلى حضرة النبى ﷺ أو أبى أو أمى أو الميت فلان فهذا لا يصل نفعه إلى الميت ولا تقبل هذه الهبة لأن الميت لم يعمل شيئا والله لا يجزى الناس إلا بأعمالهم ، والحديث صريح فى أن ابن ادم بعد موته ينقطع عمله إلا من ثلاث اثنان منهما من عمله وهما الصدقة الجارية من ماله والعلم الذى ينتفع به ، والثالثة دعاء الولد الصالح له ، والولد كسب أبيه فكان الميت هو الذى دعا لنفسه ، ولا ينفع الميت شىء غير هذه الثلاث ، بالنص ولا قياس مع النص ، ثم الحج والصيام الذين جاز نفعهما للميت إنما نفعاه لأنهما قضاء دين كان عليه ، وجاز فيها فقط بالنص أيضا لأن امرأة سألت النبى ﷺ فقالت إن أمى ماتت وعليها صوم شهر فأصوم عنها فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم أرأيت إن كان على امك دين أكنت قاضيته قالت نعم قال فدين الله أولى بالقضاء ، وكذلك الحج لأنه يجب فى العمر مرة وفواته مع القدرة ومع حاجة أهل بيت الله الحرام إلى النفقة يستوجب قضاءه ، ومما يدل على عدم نفع الهدية الميت أن النبى ﷺ لم يصرح بنفع الصلاة للميت فلو مات الميت وعليه صلاة لا يصلى عنه بدلها ، ولو مات الميت وعليه قراءة قرآن لا يقرأ عنه أو عليه تدريس درس أو سير إلى المسجد الأقصى لا يدرس الدرس عنه ولا يسار إلى المسجد الأقصى عنه وهكذا ، فنحن نتبع مانص عليه الرسول ﷺ ولا قياس مع النص والله أعلم .

باب سؤال المخلوق للمخلوق الذى غيره أفضل منه ، فان من لا يسأل الناس ، بل لا يسأل إلا الله أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم إجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل إخلاصا ، وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، إلى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفى الحديث « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب » وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة ، إلا وكل الله ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله » وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزا ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والأفعال التى يقدر عليها .

فاما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لى ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك . ولهذا روى الطبرانى فى معجمه أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاؤا اليه فقال « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » وهذا فى الاستعانة مثل ذلك .

فاما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) وفى دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد ، واليك المشتكى ، واليك المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال أبو يزيد البسطامى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وقال تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قال طائفة من

السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادى كما أنتم عبادى ، يرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ، ويتقربون إلى كما تتقربون إلى . فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا ان نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء فى قبورهم ، وان قدر أنهم يدعون للأحياء ، وان وردت به آثار فليس لأحد ان يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته ، فانه لا يفضى إلى الشرك ، ولأن ماتفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكونى ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فانه يشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى (مَاكَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِى مِنْ دُونِ اللهِ . وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أرْبَاباً ، أيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ) بين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر ، وقال تعالى (قُلْ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ) وقال تعالى (مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإذْنِهِ ؟) وقال تعالى (مَا مِنْ شَفِيعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ) وقال تعالى (مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ) وقال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى عن صاحب يس (وَمَا لِىَ لَا أعْبُدُ الَّذِى

فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ[1] عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

فالشفاعة نوعان : أحدهما الشفاعة التى نفاها الله تعالى ، كالتى أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، والثانى : ان يشفع الشفيع باذن الله . وهذه التى أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد . قال « فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن ، فيقال أى محمد ! ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » فاذا أذن له فى الشفاعة شفع ﷺ تسليما .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ، بمعنى أن يكون هو داعيا للمتوسل به ، أن يشرع ذلك فى مغيبه وبعد موته ، مع أنه هو لم يدع للمتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ، وذلك لانه فى حياته يدعو هو لمن توسل به ، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ومن لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل فهو من أضل الناس

وأيضا فانه ليس فى طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر ، بل هو خير بلا شر ، وليس فى ذلك محذور ولا مفسدة ، فان أحدا من الانبياء عليهم السلام لم يعبد فى حياته بحضوره ، فانه ينهى من يعبده ويشرك به ، ولو كان شركا أصغر ، كما نهى النبى ﷺ من سجد له عن السجود له ، وكما قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله[1] ثم ما شاء محمد » وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والإشراك به ، كما أشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم ، وغير قبورهم . ولهذا قال النبى ﷺ « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه فى

(١) كانت الآية فى طبعة السيد رشيد « لا تغنى عنهم شفاعتهم » وهى غلط وقد صححناها كما ترى.

(١) كانت لفظة « ما » ساقطة فى طبعة السيد رشيد فزدناها هنا .

الصحيحين وقال « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد » وقال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور[١] أنبيائهم مساجد » يحذر مافعلوا .

وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان ، أحدهما : أن لانعبد إلا الله ، والثانى : أن لا نعبده إلا بما شرع ، لانعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، كما قال تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : ان العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص ان يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا . وقال تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ؟) .

وفى الصحيحين عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » وفى لفظ فى الصحيح « من عمل عملا ليس عليه أمرنا ، فهو رد » وفى الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيرى ، فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف[٢] ، كما فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الأسود وقال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك ، والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته ، محبة الله وكرامته . فقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وقال تعالى (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) وقال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الطبعة الثانية قبورهم ، وهى تحريف ظاهر فصححناها كما ترى

(٢) أى على النص والتعليم لا على الاجتهاد .

وَرَسُوله فَإِنَّ لَهُ جنَّات تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ العظيم) ،
وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

ولا ينبغى لأحد ان يخرج فى هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة ، ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة ، وما علمه قال به ، وما لم يعلمه أمسك عليه ، ولا يقفو ما ليس له به علم ، ولا يقول على الله ما لم يعلم ، فان الله تعالى قد حرم ذلك كله ، وقد جاء فى الأحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به ، كقوله ﷺ « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى ، يا قيوم » رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه ،

وقد اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله تعالى ، وهو الحلف بالمخلوقات ، فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ، أو باحد من الشيوخ ، أو الملوك لم ينعقد يمينه ، ولا يشرع له ذلك ، بل ينهى عنه ، إما نهى تحريم ، وإما نهى تنزيه . ففى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « من كان حالفا ، فليحلف بالله أو ليصمت » ، وفى الترمذى عنه ﷺ أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين أنه ينعقد اليمين بأحد من الخلق ، إلا فى نبينا ﷺ ، فإن عن أحمد روايتين فى انه ينعقد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه كابن عقيل الخلاف فى سائر الأنبياء ، وهذا ضعيف . وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبى ضعيف شاذ ، ولم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم ، والذى عليه الجمهور كمالك والشافعى وأبى حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به ، كاحدى الروايتين عن أحمد ، وهذا هو الصحيح .

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات ، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ولهذا احتج السلف — كأحمد وغيره — على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبى ﷺ « أعوذ بكلمات الله التامات » ، قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق ، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا » ، فنهى عن الرقى التى فيها شرك ، كالتى فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً) ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام ، التى يستعملها بعض الناس فى حق المصروع وغيره ، التى تتضمن الشرك ، بل نهوا عن

كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ما كان من الرقى المشروعة ، فانه جائز . فاذاً لا يجوز أن يقسم لا قسما مطلقا ، ولا قسما على غيره إلا بالله عز وجل .

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسما عليه ، وإما أن يكون طالبا بذلك السبب كما توسل الثلاثة فى الغار بأعمالهم ، وكما يتوسل بدعاء النبى ﷺ والصالحين ، فان كان إقساما على الله بغيره فهذا لا يجوز ، وإن كان سؤالا بسبب يقتضى المخلوق[١] كالسؤال بالأعمال التى فيها طاعة الله ورسوله ، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ، ومحبته ، وموالاته ، ونحو ذلك . فهذا جائز . وإن كان سؤالا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع ، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء ، وقالوا : إنه لا يجوز ورخص فيه بعضهم والأول أرجح كما تقدم ، وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب ، بخلاف من كان طالبا بالسبب المقتضى لحصول المطلوب ، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين ، وبالأعمال الصالحة ، فهذا جائز ، لأن دعاء الصالحين سبب لثواب الله لنا ، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) والوسيلة هى الأعمال الصالحة ، وقال تعالى (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) .

وأما إذا لم نتوسل اليه سبحانه بدعائهم ، ولا بأعمالنا ، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم ، لم يكن نفس ذواتهم سببا يقتضى إجابة دعائنا ، فكنا متوسلين بغير وسيلة ، ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبى ﷺ نقلا صحيحا ، ولا مشهورا عن السلف ، وقد نقل فى منسك المروزى عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبى ﷺ ، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه فى جواز القسم به ، وأعظم العلماء على النهى فى الأمرين .

ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم ، كما قال تعالى فى حق موسى ، وعيسى عليهما السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك ، لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه اليهم ، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ، فاذا توسلنا إلى الله

---

(١) كذا فى الاصل ولعل فيه تحريفا وحذفا والمراد « وان كان سؤالا بسبب يقتضى الاجابة أو المطلوب » كما تقدم نظيره وكما يأتى مثله قريبا (ر) .

تعالى بإيماننا بنبيه ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل ، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة ، فالمتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بإيمان المتوسل به ولا بطاعته ، فبأى شيء يتوسل ؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فاما ان يطلب من الوسيلة الشفاعة له عنده ذلك ، مثل ان يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يلزم عليه : اشفع لنا عنده ، وهذا جائز ، وأما ان يقسم عليه ، والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز ، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق ، وإما أن يسأل بسبب يقتضى المطلوب ، كما قال الله تعالى (وَاتقوا الله الذى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَام) وسيأتى بيان ذلك .

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز ، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلا ، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم فى الشفاعة فجائز ، والأعمى كان قد طلب من النبى ﷺ أن يدعو له كما طلب الصحابة منه الاستسقاء ، وقوله : أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . أى بدعائه وشفاعته لى ، ولهذا تمام الحديث « اللهم فشفعه فى » فالذى فى الحديث متفق على جوازه ، وليس هو مما نحن فيه . وقد قال تعالى (وَاتَّقوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَام) فعلى قراءة الجمهور بالنصب . إنما يسالون بالله وحده ، لا بالرحم ، وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله ، وتعاهدهم بالله ، واما على قراءة الخفض ، فقد قال طائفة من السلف : هو قولهم أسألك بالله وبالرحم ، وهذا إخبار عن سؤالهم ، وقد يقال أنه ليس بدليل على جوازه ، فان كان دليلا على جوازه ، فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم - والقسم هنا لا يسوغ - لكن بسبب الرحم ، أى لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقا ، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة ، وكسؤالنا بدعاء النبى ﷺ وشفاعته ومن هذا الباب ماروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : ان ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان إذا سأله بحق جعفر أعطاه ، وليس هذا من باب الإقسام ، فان الإقسام بغير جعفر أعظم ، بل من باب حق الرحم ، لأن حق الله إنما وجب بسبب جعفر ، وجعفر حقه على على[1] .

(١) العبارة - كما ترى - تشكو من تحريف النساخ والمعنى ان جعفر كان له حق على أخيه على (رضى الله عنهما) فاذا سئل بسبب حقه عليه اجاب (ر) .

ومن هذا الباب ، الحديث الذى رواه ابن ماجه ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ فى دعاء الخارج إلى الصلاة : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا ، فانى لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وهذا الحديث فى إسناده عطية العوفى وفيه ضعف ، فان كان من كلام النبى ﷺ فهو من هذا الباب لوجهين (أحدهما) لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين ، وبحق الماشين فى طاعته ، وحق السائلين أن يجيبهم ، وحق الماشين أن يثيبهم ، وهذا حق أوجبه الله تعالى ، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئا ، ومنه قوله تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) - وقوله تعالى - (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) - وقوله تعالى - (وَعْداً[1] عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) وفى الصحيح فى حديث معاذ . حق الله على عباده ان يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم ؛ وفى الصحيح عن أبى ذر ، عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » وإذا كان حق السائلين والعابدين له ، هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال نافعا له[2] (؟) كالاستعاذة بنحو ذلك فى قوله ﷺ « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » فالاستعاذة بمعافاته التى هى فعله ، كالسؤال بإثابته التى هى فعله .

(الوجه الثانى) أن الدعاء له سبحانه وتعالى والعمل له سبب لحصول مقصود العبد ، فهو كالتوسل بدعاء النبى ﷺ والصالحين من أمته ، وقد تقدم أن الدعاء بالنبى ﷺ

---

(١) تمام هذه الآية (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) من سورة التوبة والمعنى أن الله أوجب على نفسه الجنة لمن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها فى سبيل الله .

(٢) الصحيح رفع نافع لأنها خبر عن فذلك إلا إذا كان فى الكلام نقص يقضى ثبوته نصبها

والصالح إما أن يكون إقساما به ، أو سببا به ، فان كان قوله « بحق السائلين عليك » إقساما فلا يقسم على الله إلا به ، وإن كان سببا ، فهو سبب بما جعله هو سبحانه سببا ، وهو دعاؤه وعبادته . فهذا كله يشبه بعضه بعضا ، وليس فى شىء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ، ولا عمل صالح منا ،

وإذا قال السائل : أسألك بحق الملائكة ، أو بحق الأنبياء ، وحق الصالحين - ولا يقول لغيره أقسمت عليك بحق هؤلاء - فاذا لم يجز له أن يحلف به ، ولا يقسم على مخلوق به ، فكيف يقسم على الخالق به ، وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به ، فليس فى مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ، ولكن لابد من سبب منه ، كالإيمان بالملائكة والأنبياء ، أو منهم كدعائهم . ولكن كثيرا من الناس تعودوا ذلك ، كما تعودوا الحلف بهم ، حتى يقول أحدهم : وحقك على الله ، وحق هذه الشيبة على الله .

وإذا قال القائل : أسألك بحق فلان ، أو بجاهه . أى أسألك بإيمانى به ، ومحبتى له ، وهذا من أعظم الوسائل . قيل : من قصد هذا المعنى ، فهو معنى صحيح ، لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء ، فمن قال : أسألك بإيمانى بك ، وبرسولك ، ونحو ذلك ، أو بإيمانى برسولك ، ومحبتى له ، ونحو ذلك ، فقد أحسن فى ذلك كما قال تعالى فى دعاء المؤمنين (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى (الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وقال تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وقال تعالى (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) وكان ابن مسعود يقول : اللهم أمرتنى فأطعت ، ودعوتنى فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لى . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر ، فأووا إلى الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ، ففرج عنهم وهو ماثبت [1] .

---

(١) لعل الاصل « وهو ماثبت فى الصحيحين » وماأظن ان المصنف قال « ماثبت » فقط وهى تحتمل النفى (ر)

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا خالد بن خِراش العجلانى وإسماعيل بن ابراهيم ، قالا حدثنا صالح المِزّى (٢) عن ثابت . عن أنس قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه ، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت اليها بعضنا وقال : ياهذه احتسبى مصيبتك عند الله . قالت : وما ذاك ؟ مات ابنى ؟ قلنا نعم ، قالت : أحق ماتقولون ؟ قلنا نعم ، فمدت يديها إلى الله ، فقالت : اللهم إنك تعلم أنى أسلمت ، وهاجرت إلى رسولك (٣) رجاء أن تعقبنى عند كل شدة فرجا ، فلا تحمل على هذه المصيبة اليوم . قال : فكشفت الثوب عن وجهه فما برحنا حتى طعمنا معه . وروى فى كتاب الحلية لأبى نعيم أن داود قال : بحق آبائى عليك ، ابراهيم واسحاق ويعقوب ، فأوحى الله تعالى اليه ، ياداود ! أى حق لأبيك على ؟ وهذا وإن لم يكن من الدلالة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها . ولا يعتمد عليها .

وقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء ، كما يطلب منه سائر مايقدر عليه ، وأما المخلوق الغائب والميت ، فلا يطلب منه شىء ، يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح ، فمعناه فى لغة الصحابة ، أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته . ودعاؤه وشفاعته ﷺ من أعظم الوسائل عند الله عز وجل ، وأما فى لغة كثير من الناس ، فمعناه أن يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته ، والله تعالى لايقسم عليه بشىء من المخلوقات ، بل لايقسم بها بحال ، فلا يقال أقسمت عليك يارب بملائكتك ، ولا بكعبتك ، ولا بعبادك الصالحين ، كما لايجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء ، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولهذا كان السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، فيقول : أسألك بأن لك الحمد ، لاإله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال ، والإكرام ، ياحى ياقيوم ، أسألك بانك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وكذلك قوله : اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الاعظم ، وجدك الاعلى ، وبكلماتك

---

(٢) نسبة إلى المزة بكسر الميم قرية بدمشق .

(٣) ظاهر هذه الكلمة أنها من المهاجرات وتقدم ان ابنها من الانصار ، وذلك ممكن (ر)

التامات . مع أن هذا الدعاء الثالث فى جواز الدعاء به قولان للعلماء ، قال الشيخ أبو الحسين القدورى فى كتابه المسمى بشرح الكرخى : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة لاينبغى لاحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبى يوسف ، قال أبو يوسف : معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام ، قال القدورى : المسألة بخلقه لاتجوز ، لانه لاحق للمخلوق على الخالق ، فلايجوز . يعنى وفاقا ، وهذا من أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما يقتضى المنع أن يسأل الله بغيره .

فان قيل : الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به . فهلا قيل : يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته ، وأن لا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى ؟ قيل لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته وإقسامنا نحن بذلك شرك ، إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه . ومن قال لغيره : أسألك بكذا . فاما أن يكون مقسما فهذا لايجوز بغير الله تعالى ، والكفارة فى هذا على المقسم ، لا على المقسم عليه ، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء وإن لم يكن مقسما فهو من باب السؤال . فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما .

فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالفا بمخلوق ، وذلك لا يجوز . وإما أن يكون سائلا به ، وقد تقدم تفصيل ذلك . وإذا قال : بالله افعل كذا . فلا كفارة فيه على واحد منهما ، وإذا قال : أقسمت عليك بالله لتفعلن ، أو والله لتفعلن . فلم يبر قسمه لزمت الكفارة الحالف . والذى يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول : أقسمت عليك يارب لتفعل كذا ، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف ، فقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « رب أشعث أغبر [1] ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وفى

(١) الأشعث هو من شعر رأسه مفرق بغير نظام أو المغبر الشعر والأغبر الذى عليه الغبار وهو التراب والطمران تثنية طمر وهو الثوب البالى من غير الصوف والمدفوع بالأبواب الذى يحتقره الناس ويدفعونه عن ابوابهم ولا يسمحون له بالدخول لعدم حسن منظره فى عيونهم ، أى قد يكون الشخص سىء المنظر لايحترمه الناس وهو عند الله ذو منزلة عظيمة حتى لو أقسم عليه لنفذ الله له رغبته وأبر قسمه .

الصحيح أنه قال لما قال أنس بن النضر : والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبى ﷺ « يا أنس كتاب الله القصاص » فعفا القوم فقال النبى ﷺ « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » ، وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر . فهو إقسام عليه تعالى وليس إقساما عليه بمخلوق .

وينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التى جاء بها الكتاب والسنة . فان ذلك لا ريب فى فضله وحسنه ، وأنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ : إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى . حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو فى شىء من كتب الحديث ، وإنما المشروع الصلاة عليه فى كل دعاء ، ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء فى الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ، ولم يذكروا فيما شرع للمسلمين فى هذه الحال التوسل به ، كما لم يذكر أحد من العلماء دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره فى حال من الأحوال وإن كان بينهما فرق فان دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين — لا الأنبياء ولا غيرهم — عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين ، بخلاف قولهم : أسألك بجاه نبينا أو بحقه ، فان هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله ولم يكن مشهورا بينهم ولا فيه سنة عن النبى ﷺ ، بل السنة تدل على النهى عنه كما نقل ذلك عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما .

ورأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد بن عبد السلام قال : لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى ، فلم يعرف صحته ، وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الأقسام بالمخلوق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم ، والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم وهو من أنفع الأمور لهم إلى ما ليس كذلك ، فان الصلاة عليه من أعظم الوسائل التى بها يستجاب الدعاء ، وقد أمر الله بها .

والصلاة عليه فى الدعاء هو الذى دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفى الصحيح عنه أنه قال « من صلى على مرة ، صلى الله عليه عشرا » وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته لم يحمد الله ، ولا يصلى على النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ « عجل هذا ! » ثم دعاه فقال له أو لغيره « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ثم يصلى على النبى ، ثم يدعو بعده بما شاء » رواه أحمد وأبو داود ـ وهذا لفظه ـ والترمذى والنسائى . وقال الترمذى حديث صحيح . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وفى سنن أبى داود والنسائى عنه أن رجلا قال : يارسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ « قل كما يقولون فاذا انتهت سل تعطه » وفى المسند عن جابر بن عبد الله قال : من قال حين ينادى المنادى : اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضاء لاسخط بعده . استجاب الله له دعوته » وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ « الدعاء لايرد بين الأذان والإقامة » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وقال الترمذى : حديث حسن . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما ترد على داع دعوته : عند حضور النداء ، والصف فى سبيل الله » رواه أبو داود . وفى المسند والترمذى وغيرهما عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها[1] الرادفة ، جاء الموت بما فيه ـ قال أبى قلت : يارسول الله إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتى قال ـ « ماشئت ـ قلت الربع ؟ ـ قال : ماشئت وان زدت فهو خير لك ـ قلت النصف ؟ ـ قال : ماشئت وإن زدت فهو خير لك ـ قلت الثلثين ؟ قال : ماشئت وإن زدت فهو خير لك ـ قلت أجعل لك صلاتى كلها ؟ ـ قال إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك ـ وفى لفظ ـ إذا يكفى همك

(١) الراجفة النفخة الأولى التى يرجف منها كل شىء . أى يتزلزل ويضطرب ويذهب ، والرادفة النفخة الثانية التي تردف النفخة الأولى أى تتبعها وبها يحيي كل شيء . كان مات بالنفخة الأولى

ويغفر ذنبك ، وقول السائل : أجعل لك من صلاتى ؟ يعنى من دعائى . فان الصلاة فى اللغة هى الدعاء . قال تعالى (وَصَلِّ [١] عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) وقال النبي ﷺ « اللهم [٢] صل على آل أبى أوفى » وقالت امرأة : صل على يارسول الله وعلى زوجى . فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » فيكون مقصود السائل أي يارسول الله إن لى دعاء أدعو به أستجلب به الخير ، وأستدفع به الشر ، فكم أجعل لك من الدعاء ، قال « ماشئت » فلما انتهى إلى قوله : اجعل لك صلاتى كلها . قال « إذا تكفى همك ويغفر ذنبك » وفى الرواية الأخرى « إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » وهذا غاية مايدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات ، فان الدعاء فيه تحصيل المطلوب ، واندفاع المرهوب ، كما بسط ذلك فى مواضعه . وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية ، وأعرضوا عن الأدعية البدعية فينبغى اتباع ذلك .

والمراتب فى هذا الباب ثلاث (إحداها) أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : ياسيدى فلان أغثنى أو أنا أستجير بك أو أستغيث بك أو انصرنى على عدوى . وأعظم من ذلك أن يقول : اغفر لى وتب على . كما يفعله طائفة من الجهال المشركين . وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلى إليه ويرى الصلاة إليه أفضل من استقبال القبلة . حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبل العوام . وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج حتى يقول ان السفر إليه مرات يعدل حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس فى بعضه .

(الثانية) أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لى ، أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا . كما تقول النصارى لمريم وغيرها ، فهذا أيضا لايستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التى لم يفعلها أحد من سلف الأمة ، وان كان السلام على

---

(١) تمام هذه الآية ، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) من سورة التوبة .

(٢) كان رسول الله ﷺ . إذا جاءه أحد بزكاة ماله قال (اللهم صلى على آل فلان ، فجاءه أبو أوفى بزكاته فقال اللهم صل على آل أبى أوفى ، وذلك امتثالا لقوله تعالى وصل عليهم

أهل القبور جائزا ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور ان يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » وروى أبو عمر بن عبدالبر عن النبي ﷺ أنه قال « مامن رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيافيسلم عليه إلارد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وفى سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال « مامن مسلم يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لادعاء ولا غيره . وفى موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك يا أبه[1] ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلى على النبي ﷺ ويدعو لأبي بكر ، وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ ، فاذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لايدعون مستقبلى الحجرة . وإن كان قد وقع فى بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب إلى ذلك إمام متبع فى قوله ولا من له فى الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الأئمة الأربعة : مالك وأبي حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فأنه يستقبل القبلة ، واختلفوا فى وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعى وأحمد : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم فى مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره فهذا نزاعهم فى وقت السلام . وأما فى وقت الدعاء فلم يتنازعوا فى أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التى تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . كذب على مالك ليس لها إسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات فى كتب أصحابه ، كما ذكره

---

(١) أصلها يا أبي .

اسماعيل بن إسحاق القاضى وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلى الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التى لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فان الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم ، ولوكان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعا لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم ، والداعى يدعو الله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أبى مرثد الغنوى أن النبى ﷺ قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » فلا يجوز أن يصلى إلى شىء من القبور لا قبور الأنبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا من البدع المحدثة . وكذلك قصد شىء من القبور لا سيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء إذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى أن لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلى مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى ، فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئا ، لا يطلب منه أن يدعو الله ولا غير ذلك . ولا يجوز أن يشكى إليه بشىء من مصاب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكى إليه ذلك فى حياته ، فان ذلك فى حياته لا يفضى إلى الشرك ، وهذا يفضى إلى الشرك ، لأنه فى حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له فى ذلك من الأجر والثواب ، وبعد الموت ليس مكلفا بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعائه ونحو ذلك كما أن موسى يصلى فى قبره وكما صلى الأنبياء خلف النبى ﷺ ليلة المعراج ببيت المقدس ، وتسبيح أهل الجنة والملائكة — فهم يمتعون بذلك وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم ، ليس هو من باب التكليف الذى يمتحن به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر فى ذلك شيئا ، بل ما جعله الله فاعلا له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به وهم إنما يطيعون أمر ربهم

لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ٭ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء فى حياته جوازه بعد موته ، فان بيته كانت الصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز أن يجعل مسجدا ، ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجدا كما أن فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر مافعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا ، وفى صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك ، وقد كان ﷺ فى حياته يصلى خلفه وذلك من أفضل الاعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلى الرجل خلف قبره ، وكذلك فى حياته يطلب منه أن يأمر وأن يفتى وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته وأمثال ذلك كثيرة .

وقد كره مالك أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ . لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية فى زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركا فى عرف المتأخرين يراد به الزياره البدعية التى فى معنى الشرك كالذى يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده .

والزيارة الشرعية هى أن يزوره لله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلى على جنازته . فهذا الثانى هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لايقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره . لما فيه من ايهام المعنى الفاسد الذى يقصده أهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذى تقدم عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما أنه منهى عنه . وتقدم أيضا أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين مافى لفظ التوسل من الاشتراك بين ماكانت الصحابة تفعله وبين مالم يكونوا يفعلونه ، فان لفظ التوسل والتوجه فى عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل

والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قال « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك – عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ، ولعن أهله تحذيرا من التشبه بهم ، فان ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) فان هؤلاء كانوا قوما صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم ، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف .

وهذا الذى نهى عنه النبي ﷺ من هذا الشرك هو كذلك فى شرائع غيره من الانبياء . ففى التوراة أن موسى عليه السلام نهى بنى إسرائيل عن دعاء الاموات وغير ذلك من الشرك ، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله . وذلك أن دين الانبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » ، وقد قال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا [1] ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وقال تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

(١) أى أحزابا متخالفين والآيات من سورة المؤمنون .

عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وهذا هو دين الإسلام الذى لايقبل الله دينا غيره من الاولين والآخرين ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

فصل

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله وما نهى الله عنه ورسوله فى حق أشرف الخلق ، وأكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين ، وأفضل الاولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاها عند الله تبارك وتعالى - تبين أن من دونه من الانبياء والصالحين أولى بان لايشرك به ، ولا يتخذ قبره وثنا يعبد ، ولا يدعى من دون الله لافى حياته ولا فى مماته .

ولا يجوز لاحد أن يستغيث باحد من المشايخ الغائبين ولا المائتين ، مثل أن يقول : ياسيدى فلانا أغثنى وانصرنى وادفع عنى ، أوأنافى حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل هذا من الشرك الذى حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الاوثان ، صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الاوثان ويغويهم ، فتتصور الشياطين فى صورة ذلك المستغاث به ، وتخاطبهم باشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخاطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لابد أن يكون فى ذلك ماهو كذب ، بل الكذب أغلب عليه من الصدق ، وقد تقضى الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض مايكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذى جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكا على صورته فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله . وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين فى الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض حوائجهم ، كما كان ذلك فى أصنام مشركى العرب ، وهو اليوم موجود فى المشركين من الترك والهند وغيرهم .

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة فى أقوام استغاثوا بى وبغيرى فى حال غيبتنا عنهم فرأونى أو ذاك الآخر الذى استغاثوا به قد جئنا فى الهواء ودفعنا عنهم، ولما حدثونى بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتى وصورة غيرى من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم فى الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين (١) وهذا من أكبر الاسباب التى بها أشرك المشركون وعبدة الاوثان. وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاس يرون أيضا من يأتى على صورة ذلك الشيخ النصرانى الذى استغاثوا به فيقضى بعض حوائجهم

وهؤلاء الذين يستغيثون بالاموات من الانبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبى ﷺ غاية أحدهم ان يجرى له بعض هذه الامور او يحكى لهم بعض هذه الامور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل. ومن هؤلاء من يأتى إلى قبر الشيخ الذى يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وإنما ذلك كله من الشياطين، وهذا من أعظم الأسباب التى عبدت بها الأوثان. وقال الخليل عليه السلام (وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) كما قال نوح عليه السلام ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيرا من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم، ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب: منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر، ومنهم من جعلها لأجل الجن، ومنهم من جعلها لأجل الملائكة. فالمعبود لهم فى قصدهم إنما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس أو القمر، وهم فى نفس الأمر يعبدون الشياطين، فهى التى

---

(١) وقد وقع ان بعض المصابين بالصرع ونحوه رأونى ادفع عنهم الجن الذين يؤذونهم. ومن الناس من يعلل ذلك بأن الرائى يتمثل له صورة من يعتقد صلاحه فى خياله فيراه فى الخارج وهو مستيقظ مأخوذ عن حسه كما يراه فى النوم. وهذا التعليل أقرب. ولابن القيم كلام فيه حسن فى بحث الرؤيا يتحل به رؤية الكفار لبعض الانبياء والصالحين (ر)

تقصد من الإنس ان يعبدوها وتظهر لهم مايدعوهم إلى ذلك ، كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وإذا كان العابد مما لايستحل عبادة الشياطين أوهموه انه إنما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به . واما ان كان مما لايحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن . وقد يطلب الشيطان الممثل له فى صورة الإنسان أن يسجد له أو ان يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو ان يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لايعرفون ذلك . بل يظنون أن من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء لله غائبون عن أبصار الناس . وأولئك جن تمثلت بصور الإنس أو رؤيت فى غير صور الإنس ، قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه ، وكانت الإنس تستعيذ الجن فصار ذلك سببا لطغيان الجن ، وقالت : الإنس تستعيذ بنا .

وكذلك الرقى والعزائم الاعجمية هى تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك فى بعض الامور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وكثير من هؤلاء يطير فى الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله

ويستحل المحارم التى حرمها الله ورسوله ، وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما انه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ، وذهبت تلك الاحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات ، وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيرا بالشام ومصر والحجاز واليمن واما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التى أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوى الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرساله ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية ، والشخص الواحد الذى يجتمع فيه هذا وهذا الذى تكون فيه مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال ، والمشركون الذين لم يدخلوا فى الاسلام مثل البخشية والطوانية والبدّى ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الاحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم فى الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف[1] الذى يغنى لهم به يمشى فى الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون أحدا يضرب له ، ويطوف الاناء الذى يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم فى مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاما يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة ، وكذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها وتأتى به وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الايمان من الترك وغيرهم وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون فى الاسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم فلهم من الاحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضى الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ولا يطوف

(١) هو المعروف عندنا (بالطار)

طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الاولياء ، ولا يعلم ان هذا من تلاعب الشيطان به ، فان مثل هذا الحج ليس مشروعا ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن ان هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل ، ولهـذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يُفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل قدرا من ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية إلى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : كتبتموني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذى يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم فى الهواء فقال لهم : هـــذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبنى على أصلين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شىء ، وعلى أن يُعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ . وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فالإله هو الذى تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ، ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله .

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله تعالى امره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وتحليله وتحريمه ، وسائر ما بلغه من كلامه واما فى اجابة الدعاء ، وكشف البلاء ، والهداية والاغناء ، فالله تعالى هو الذى يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ؛ وهو سبحانه قادر على انزال النعم ، وازالة الضر والسقم ، من غير احتياج منه الى أن يعرفه أحد احوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم ، والاسباب التى بها يحصل ذلك هو خلقها وسيرها فهو مسبب الاسباب ، وهو الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) فأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ولا يغلطه اختلاف أصواتهم

ولغاتهم ، بل يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، ولا يبرمه(١) إلحاح الملحين ، بل يحب الالحاح فى الدعاء .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم اذا سألوا النبى ﷺ عن الاحكام أمر رسول الله ﷺ باجابتهم كما قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلَّة قُلْ : هِىَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ وَالْحَجِّ - وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : الْعَفْوَ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَام قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) الى غير ذلك من مسائلهم ، فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِى اذا دَعَانى) فلم يقل سبحانه : فقل . بل قال تعالى « فانى قريب أجيب دعوة الداعى » فهو قريب من عباده كما قال النبى ﷺ فى الحديث لما كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء فقال « أيها الناس أربعوا(٢) على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذين تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقال النبى ﷺ « اذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يبصقن قبل وجهه فان الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فان عن يمينه ملكا ، ولكن عن يساره وتحت قدمه » وهذا الحديث فى الصحيح من غير وجه .

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن (٣) من خلقه ، ليس فى مخلوقاته ، شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . وهو سبحانه غنى عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر الى شىء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش .

وقد جعل تعالى العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقرا الى أسفله ، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء ، والهواء لا يفتقر إلى الأرض ، فالعلى الأعلى رب السموات والأرض ومابينهما الذى وصف نفسه بقوله تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيات بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شىء بحمل . أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد

---

(١) أى لايجعله يبرم ويتضايق

(٢) أى انتظروا واحبسوا أنفسكم عن الاسترسال فى رفع الصوت .

(٣) أى مخالف لهم منفصل عنهم .

الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، الذى كل ماسواه مفتقر اليه وهو مستغن عن كل ماسواه .

وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع قد بين فيه التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولا وعملا ، فالتوحيد القولى مثل سورة الأخلاص (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) والتوحيد العملى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)(١) ولهذا كان النبى ﷺ يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك ، وقد كان أيضا يقرأ فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف (قُولُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا)(٢) الآية . وفى الركعة الثانية بقوله تعالى (قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) فإن هاتين الآيتين فيهما دين الاسلام وفيهما الايمان القولى والعملى ، فقوله تعالى (آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) الى آخرها يتضمن الايمان القولى والاسلام . وقوله (قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) ـ الآية الى آخرها ـ يتضمن الاسلام والايمان العملى فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الاسلام والايمان ، وهما فى هاتين الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذى أحببت إيراده هنا بألفاظه لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة والقواعد النافعة فى هذا الباب مع الاختصار فإن التوحيد هو سر القرآن ، وكتب الايمان وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الامور وأنفعها للعباد فى مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم .

تم الكتاب

---

(١) أى هذه السورة وفيها لا أعبد ماتعبدون فلا أطيعه ولا أقوم له بواجبات التعظيم وغيرها مما تفعلون (٢) تمام الآية (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) من سورة البقرة .

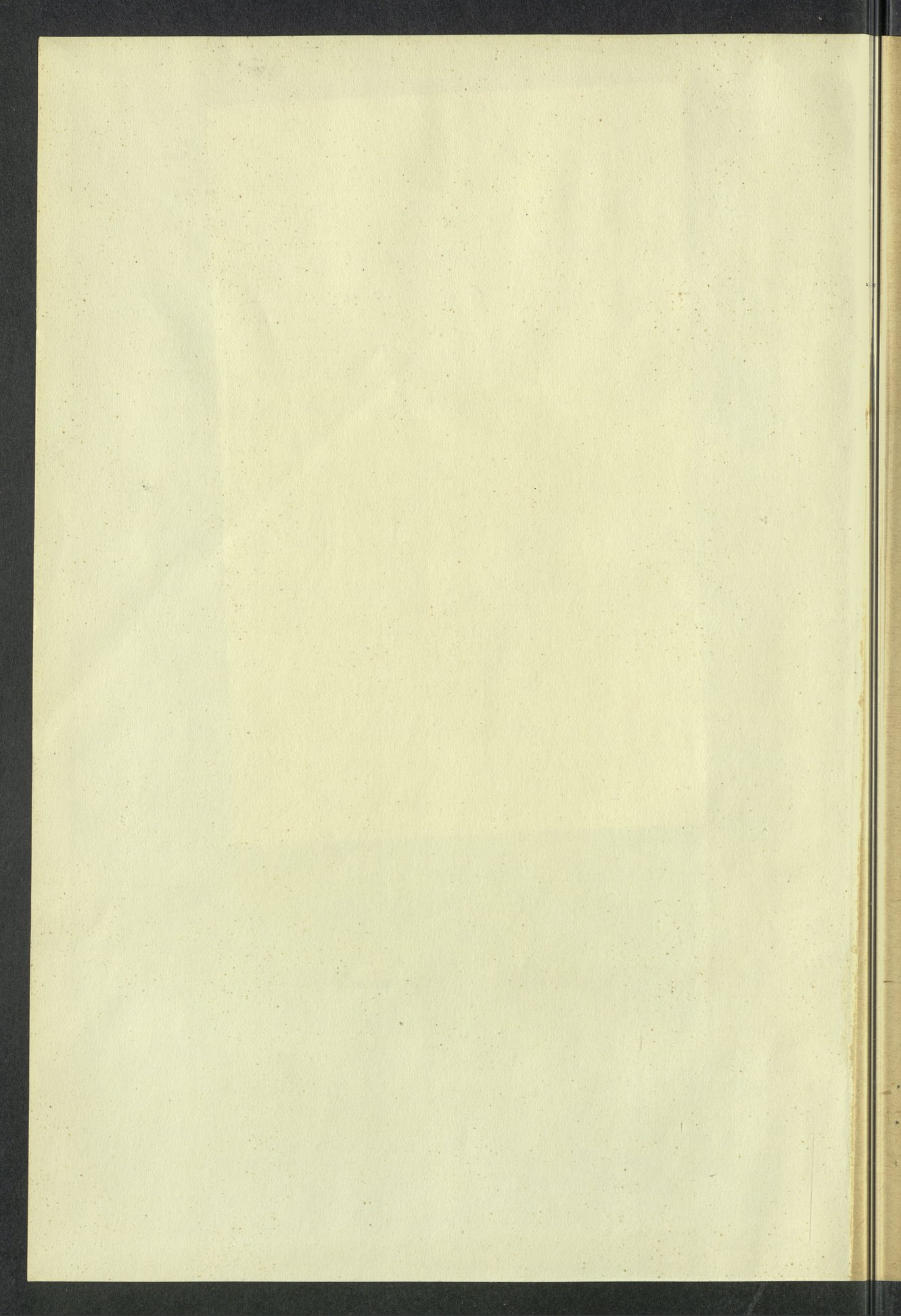
الفهرست

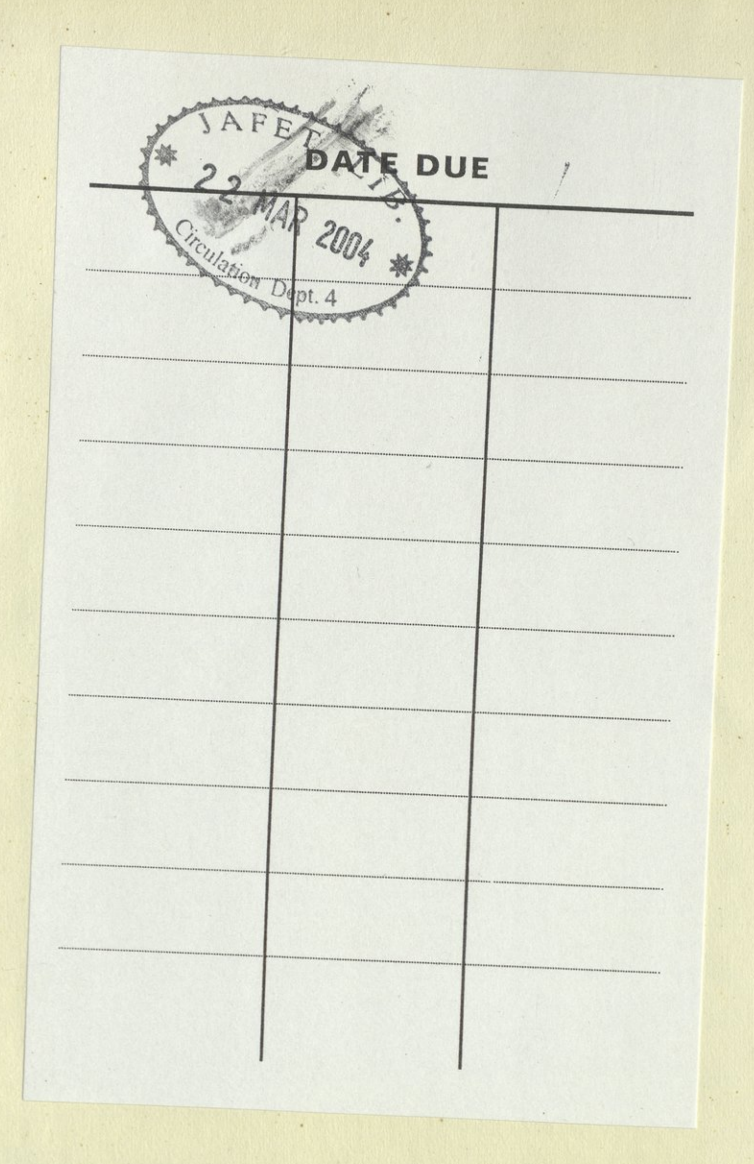
صفحة

صفحة

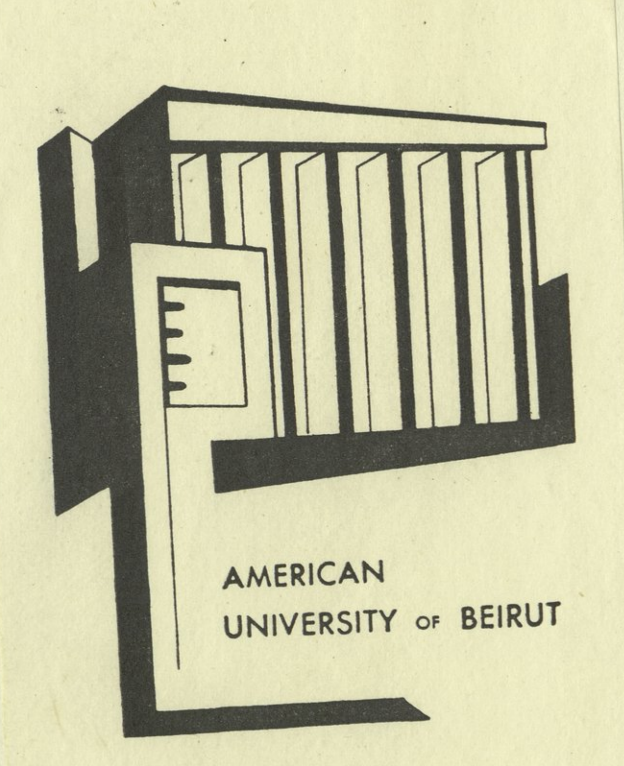
صفحة

(تم الفهرست)








AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

